قصص

عدي الزعبي

الصمت

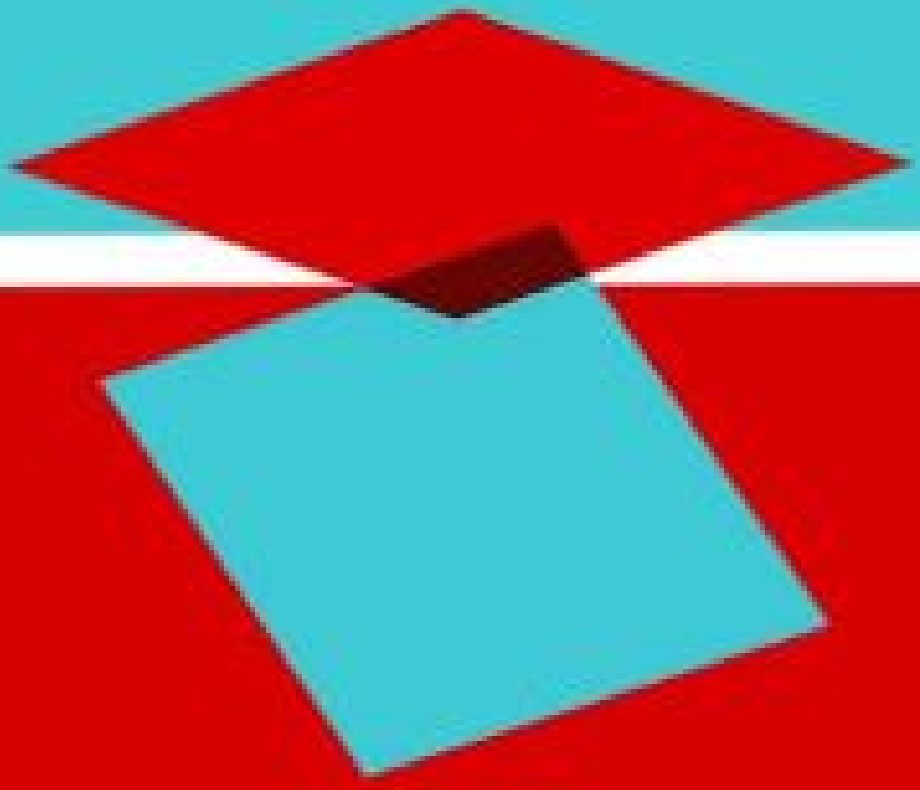

المتوسط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

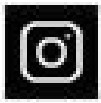

Almutawassit

للصمت معانٍ متعددة وأشكالٍ مختلفة.

نصمت عندما لا نعرف ماذا نقول، ونصمت إن قيل كل ما نريد قوله.

نصمت عندما يفهمنا الآخرون، ونصمت إن لم يفهمنا أحد.

يصمت البعض خوفاً، أو مللاً، أو تجنباً للإحراج.

يصمت البعض ترفعاً، والبعض الآخر تواضعاً.

نصمت أحياناً مع الأصدقاء، ومع الخصوم، ومع الغرباء.

الصمت يكون تلميحاً أو تصريحاً؛

إجابة أو سؤالاً؛

ويكون شوقاً، وتعباً، وحيرة؛

وقد يكون فرحاً أو حزناً؛

تفكرًا أو ذهولاً.

نصمت في حضرة الجمال، وفي حضرة الشر.

نصمت أمام البحر والنهر والجبل والسهول المفتوحة؛

ونصمت في ضوء حزن القمر.

نصمت خشية أن نجرح الآخرين.

نصمت عندما نسمع الموسيقى، وعندما نقرأ الشعر، وفي السينما.

نصمت دائماً في القَبْل.

الموتى، وحدهم، لا يصمتون.

-١-

تقول تمارى إنني عصبي على الدوام، وإن التأمل يساعد أمثالي. ماذا أتأمل؟ "تأمل نفسك"، تقول تمارى. "ابحث في داخلك". لا أجد شيئاً هناك يا تمارى، لا شيء لأتأمله. كل ما يعبر ذهني خارجي: مجموعة لوحات غويا المعروفة باسم النزوات، الترجمة السيئة لمقالات برتراند راسل في نظرية المعرفة التي قرأتها البارحة، وكثرة الخل في السلطة التي تناولتها اليوم. ربما كانت هذه نفسي يا تمارى، لا شيء يستحق التأمل. أما أنتِ فتملكين ثراءً داخلياً؛ تساعدك الروحانيات على المضي قدماً. أعرف، لا تحبين تسميتها بالروحانيات. تمارسين اليوغا يومياً، وتمتنعين عن تناول اللحوم؛ تهذرين باستمرار عن التوازن النفسي، وتذهبين إلى المركز البوذي مع الأبله الفرنسي ثلاث مرات في الأسبوع. تقولين إن هذا التأمل يساعدك على بناء شخصية متزنة. أتحسس الدبق على الطاولة. أحرك أصابعي متابعاً حدود الدبق. من أين أتى؟ شاي حلو؟ بيرة؟ أريد أن أشم أصابعي، ولكنني أخشى أن يراني الناس. تقول تمارى إنني أفكر أكثر مما يجب بما يقوله الناس عني. ربما. أبتسم بشماتة عندما تكلم أباها على الهاتف. ليست انتقادات أبيها لخياراتها المهنية والعاطفية ما يزيكها، بل مجرد الكلام معه. تبدو تمارى كمن يحاول قول شيء لا يُقال. تنهي المحادثة وهي تردد بأنها ستكلمه قريباً بشكل مطول. لا يبدو أن التأمل يساعدك يا تمارى. أرفع يدي عن الطاولة بنزق ثم أنزلها، أعود إلى حدود الدبق. لا أستطيع التركيز على ما يؤرقني يا تمارى. يبدو لي التأمل فراغاً مفتوحاً، يؤرقني هذا الفراغ ذاته. أرفع يدي عن الدبق. يعلق بعض الدبق فيها. المقهى شبه فارغ، لن يراني أحد إن شممت يدي. أنا بحاجة إلى جريدة أو كتاب لأتأمل فكرةً ما، أما هذا التأمل الداخلي فعبث محض. أعتقد أحياناً أنني معجبٌ بتمارى. تحب أن تلبس ربطات عنق، وتحتج بشدة على إصراري أنها تلبسها لأنها تزيد فتنتها. تعود يدي إلى الطاولة. تتحرك بسرعة على حدود باتت تعرفها جيداً. تقول تمارى إنني لست جاداً مع النساء. لا تعرف تمارى أنني أكلم لينا. تستريح يدي على الطاولة. يلامس باطن كفي الدبق. تقول تمارى إنني لم أفهم النساء لأنني نشأت في بلد مسلم، لأنني لم أعش مع امرأة

تحت سقف واحد. تقول إنني ما زلت مسلماً. تمارى لا تكره المسلمين، بل تتجنبهم فقط. قلت لها أن تحاول فهمهم، مصادقتهم. "ليس الآن". لا وقت لديها كي تختبر الآخرين. أضغط بيدي على الطاولة. أشعر بالدبق يلتصق بيدي. تحب تمارى أن تمشي بجانب البحيرة. تتحدث عن الطبيعة بشغف. ألهو بعصا خشبية ضارباً فروع الشجر حولي. تقول إنني متوتر،وأحتاج إلى الراحة وإلى فهم الطبيعة المحيطة بنا. أضحك. تمارى تعتقد أن البشر جزء من الطبيعة، أن لا فارق جذري بيننا وبين الحيوانات. أحك حدود الدبق بأظافري. استيقظت صباحاً وأنا أدندن أغنية نانسي عجرم "يا طبطب يا ادلع". ما زالت الأغنية تتردد في رأسي. كانت لينا تحب هذه الأغنية. لم أخرج مع فتيات عربيات يحببن هذا النوع من الأغاني لسنوات. أشتاق إلى بساطة لينا وطيبتها. انفصلت لينا عن زوجها، وأتمت الطلاق منذ خمسة أشهر. يجب أن تُنظف الطاولة. أخشى أن أبدو متطلباً إن طلبت من النادلة تنظيفها. لو لم يكن ذلك مدعاة للسخرية، لنظفتها بنفسي. أسحب يدي بسرعة. أعض شفتي السفلى بتوتر، ثم أحاول أن أبدو طبيعياً. بالطبع أنا بحاجة إلى الراحة. أحياناً أجد السكينة في قراءة الشعر، أو بعض الشعر. لم أستطع إنهاء كتيب صغير لسيلفيا بلاث الأسبوع الماضي. الآن أعيد قراءة شيمبورسكا. أضع ظاهر يدي على الدبق، وأحركها على مهل. "البعض لا يحب الشعر". أسحب يدي وأضعها في جيبي. لينا لا تحب الشعر. لا معنى لهذه المحاولة. لا يبدو أن التأمل يفيدني يا تمارى. يجب أن أعود إلى البيت وأنهي ترجمة المقال قبل سفري غداً.

-٢-

صباحاً، على الشرفة الصغيرة، أتأمل بيروت.

تدخل أمي الشرفة بابتسامتها الأزلية. أحياناً أحسد هذه المرأة على ابتسامتها.

"حلو البيت، غالي؟"

"أيه غالي شوي، بس آخدينو مؤقت... لنشوف إذا رح نقعد ببيروت أو نروح عمصر أو دبي".

تسحب أمي سيجارة. تحملها بشكل أخرق وتدخنها بسرعة كأنها مراهق يخشى أن يضبطه والداه. كان محمد يدعو هذا بدخان النسوان. لينا، كأمي، تدخن فقط في المناسبات.

"عمبطل دخان، متل مانك شايفة"

"أيه برضاي عليك. مو ناقصك غير هالشغلة. لك ألف وحدة بتتمناك... شبوبية وفهم وزوق وحكيك بياخد العقل».

«لا تبلشي ميشان الله. كيفو بابا؟ راق ولا لسا؟»

«لا والله. بالله لا تعكرلو مزاجو. رحنا عالدكتور مبارح. ما فيو شي، بس عينو اليمين بدها عملية»

«نفسها يلي قلتولي عليها بالتلفون؟»

«أيه نفسها»

«انشالله بسيطة»

تدخل البيت.

مشغولة دوماً ومهووسة بالنظافة.

تنتابني مشاعر متضاربة في بيروت. أمي تكره هذه المدينة، لطالما كرهتها. أما لينا فتحبها، تحب لينا الكثير من المدن. تقول أم تمارى إن بيروت مليئة بالإرهابيين، وإن العرب، حتى حين يلبسون مثلنا، مختلفين. أخبرتني تمارى أن الأم لا تقول هذه الأمور إلا في الجلسات العائلية، لا ترتاح إلى التعبير عن هذه الأفكار في العلن. أتحسس باطن كفي. ما زلت أشعر بالدبق، رغم أنني غسلت يدي عدة مرات. هل نظفت النادلة الجميلة الطاولة؟ هل انحنت حتى بان جزء من ظهرها وقفاها؟ أم نظفها الشاب الضخم بلحيته الشعثاء؟

تعود إلى الشرفة مع القهوة.

"كيف ما عكرلو مزاجو يعني؟"

"اشراب قهوتك وخليك ساكت."

"حاضر ميادة خانوم."

تصب القهوة.

في حركات يديها أناقة لا تذبل، وإن شاخت اليدان.

"ماما، خليك قاعد أسبوع تالت. والله أسبوعين ما بيكفو."

"منشوف... أهلين أبو رياض. صباح الخير"

يجلس أبي بكرشه الكبير مبتسماً.

"صباح النور. شو لقتلك عروس؟"

"لا والله، ما عمتلاقي يلي عمندور عليه"

يبدأ حديثه في السياسة، يحلل ويناقش.

تقول تمارى إنني يجب أن أخبره، مرة واحدة على الأقل قبل وفاته، إنني أختلف معه كلّياً.

أهز رأسي موافقاً.

"برضاي عليك بعد عن المشاكل".

"انشالله خير أبو رياض".

"وبطل دخان"

"عين خير".

تتركنا أمي متجهة إلى المطبخ، تدمدم شيئاً ما عن غلاء الأسعار.

يعلّق بملل، "الله يلعن هالثورة وهالنظام. مبسوط بشنططتنا هيك أنا وأمك؟"

"الله بيعين أبو رياض".

لينا أيضاً في بيروت.

أصب القهوة وأقدم له فنجاناً. ليس من محبي القهوة.

"المهم أنت ما تفوت بمشاكل. ريحلي راسي وبلا الحكي الفاضي تبعك أنت ورفقاتك"

أتابع سيارة مسرعة على الكورنيش.

"ماشي"

ما الذي يعرفه بالضبط؟

"وإمتى رح نجوزك؟"

"بس تتحسن الأمور"

يقترب مني ويقول بصوت منخفض وابتسامة متواطئة، "ولك ما بدك تبطل تعريص يا حيوان؟"

"له يا أبو رياض، يلي بيسمعك بيقول إني طول الوقت عمعزص. هي رزقة، بس تجي منشتغل"

"يعني مو ناوي. ولك يا فهيم بس جيب وحدة تكون جنبك تطبخ وتغسل وتشتغل شغل البيت وتكون بنت عالم وناس. بعدين عزص عالهدا".

يقف أمامي بقميصه الداخلي الأبيض الشيال. يبدو كرشه أكبر مما كان في زيارتي السابقة.

تقول تماري إنني لن أحب حباً حقيقياً إن لم أستقل بنفسي. لا تعرف تماري شيئاً عن لينا. لا أحد في بريطانيا يعرف شيئاً عن لينا.

يتمطى واقفاً. يستند إلى الدرابزين ويتأمل المدينة.

"يدك تروح معي اليوم لعند أبو الحكم. الساعة ٥ بتكون جاهز"

"بس مواعد الشباب عالستة"

ينهي الحديث فيما هو يغادر الشرفة، "بتجي معي وبعدين بتلحقون، ما رح نطول. شغلتنا ساعة، ساعة وشوي".

تدخل أمي مسرعة: "روح معو، كرمالي لا تزعلو... ومنو بتتسايرو شوي لحالكون بالسيارة"

"ماما، أنا يا دوب بحكي كلمتين وهو..."

"يا ميادة".

تركض إلى غرفة النوم.

أشعل سيجارة. ربما تماري محقة.

أصوات الباعة وأبواق السيارات مرتفعة جداً.

أرتب الصينية وأحملها إلى الداخل. فنجانه نصف ممتلئ. حين أعود من المطبخ أراه في غرفة الجلوس. لأول مرة ألاحظ أن يده ترتجف عندما يشرب كأس الماء. تنفسه متقطع. يضع النظارة محاولاً قراءة الوصفة الطبية. خمسة أو ستة أدوية متناثرة على الطاولة. علائم الشيخوخة الجسدية أصبحت مرئية.

"أبي، دريت أنو محمد استشهد"

"دريت. الله يرحمو".

يبتلع حبتين.

ترتجف يده.

يدمدم، "الحمد لله".

يبتلع حبة أخرى، ويهمس "الله يرحمنا جميعاً."

أضع رأسي بين كفي. أحاول أن أقول شيئاً. ترفع أمي الأباجور. تدخل الشمس في عيني.

يدمدم بصوت مسموع، "الحمد لله على كل شي".

تقول تمارى إن الكائن البشري يتحرر عندما يستطيع أن يواجه الآخرين. تقول إن حرية الفرد وقدرته على الاختيار والدفاع عما يختاره تمثل جوهر إنسانيته.

أميل بجسدي قليلاً مبتعداً عن الشمس.

يأخذ الحبة الرابعة ويدمدم، "وهي ميشان القلب. يا رب".

تمارى أخبرت أباها أنها تشعر بغبن شديد بسبب علاقاته الغرامية في طفولتها. قالت له إنه لم يهتم بها، إنه مستهتر ومسؤول عن أزمتها النفسية، وإن والدتها تستحق أفضل من الدون جوان الذي كانه.

تجلب أمي قميصه.

"الله يرحمو. الله يرحم كل هالشباب. بدك شي مصاري تبعت لأهله. أنا جاهز."

أتردد قليلاً، "الله يخليك... بدي شي ٢٠٠٠ دولار بس".

"يتأمر."

تقول تمارى إنها لم تتحرر كلياً. مصارحة أبيها بمشاعرها هي الخطوة الأولى، الضرورية، كي تتحرر. الآن تحاول تمارى أن تبدأ حياتها كما تريدها هي. تعتقد أنها تأخرت قليلاً، في أواخر العشرينيات، ولكنها متفائلة.

"الله يحميك، الله يحميكون كلكون. والله يعين هالأمهات. لشو كل هاد؟ آه"

"يا أبي، شو نعمل يعني؟"

"خليك بشغلك وادعي أنو تهدا. لا تعمل شي"

كان محمد في الثانية والثلاثين، دائم الابتسام. الوحيد الذي يعرفه أبي ويتذكره من أصدقائي.

"يا ميادة، ناولينا تفاحة".

تجلب التفاحة.

يقضمها بشراهة.

قال محمد أنه عندما ضبط أباه مع امرأة أخرى، كان يأكل تفاحة.

يلمع بعض الدبق على الطاولة في أشعة الشمس.

يقف بكرشه الكبير أمامي، "الله يحميكون، الله يرحم هالشباب. يا الله ترحمنا وتحسن آخرتنا".

يحجب جسده الضخم ضوء الشمس، كشجرة لا تهرم.

أشعر بأن اللحظة سرمدية، كمشهد طبيعي للانطباعيين.

أغمض عيني لأحفظ تفاصيله الكاملة.

"تقريباً ما عمشوف شي بعيني اليمين".

يذهب إلى الغرفة متثاقلاً.

أتحسس حدود الدبق بأصابعي.

أضغط عليه، ثم أشم يدي.

شيء ما حلو، ربما شاي.

أذهب إلى المطبخ، أجلب ممسحة، وأنظف الدبق.

إلى دانة شركس

-١-

جلست تغريد في قسم الوجبات السريعة في مول الإمارات تتأمل عائلة باكستانية. كانت الجدة تهتم بالطفلة الرضيعة، فيما البنات الثلاث يتكلمن مع الأم التي تهز برأسها موافقةً. يأتي الأب حاملاً صينية كبيرة من الطعام. تصرخ البنت الصغرى وتضرب الصينية بيدها. تسقط المشروبات الغازية على الأرض. يقف الأب عاجزاً، يكاد يبكي. تهرب الطفلة إلى الطاولة المجاورة حيث تجلس فتاة شقراء أوروبية تلبس بنطالاً ضيقاً وبلوزة أضيق. تتكلم الفتاة على الهاتف بالفرنسية، فيما هي تبتسم للطفلة التي هربت إليها. تفكر تغريد، لماذا لا نستطيع أن نعيش جميعاً بسلام؟ أحدهم يحملق فيها. تتعرف تغريد على علا. لا تعلم ما يجب فعله للوهلة الأولى، ثم تذهب إليها وتقبلها. يتبادلان حديثاً قصيراً جداً. كانت تغريد تريد الاطمئنان على علا، ولكنها بحاجة إلى أن تنهي الحديث بسرعة قبل أن تعود أمها وأختها بالطعام. تودع علا على عجل وتعود إلى طاولتها.

ترى الأخت تغريد مع علا من بعيد. تقول بصوت ممتعض فيما هي تجلس، "مين هي يلي كنتي عمتحكي معها؟"

"رفيقة من الشام".

"لك مو هي علا؟"

لا ترد تغريد.

"الله يلعنها ويلعن كل هالناس العاطلة".

تحتج تغريد بصوت يكاد لا يسمع، "الله يعينها".

تصر الأخت على لعن علا وعائلتها. تطلب علا من أختها أن تدع علا وشأنها، ترفض الأخت.

"لو كان فيكي شوية مخ كنتي من أول قطعتي هالعالم".

تتدخل الأم في النهاية، "خلص أنت وياها. تغريد بتعرف شو لازم تعمل."

تشعر تغريد بغصة. تتشاغل بهاتفها النقال. ترسل رسالة إلى لانا تطلب منها رقم علا في دبي.

في الطريق إلى البيت، تتأمل علا المدينة. ليلاً، تتحول دبي إلى مدينة أحلام. الأبراج العالية والأتوسترادات العريضة تجعلك تشعر بالخدر. لم تر علا تغريد منذ سنتين تقريباً. قبل عدة أشهر، أرسلت لها ابنة خالتها كليب قصير مأخوذ من شاشة الفضائية السورية تظهر فيه تغريد مع أسماء الأسد. يعود الغضب إلى قلب علا. كانت تغريد صديقتها منذ أيام المدرسة الإعدادية، والمفضلة عند أبيها وأمها: الوحيدة التي تسمح أمها لها بالمبيت عندها. ما الذي حدث إذن؟ لماذا تحولت تغريد إلى متعصبة همجية؟ تغني فيروز "من عز النوم بتسرقني". كان محمد يكره هذه الأغنية ويجادل دائماً أن بعض أغاني فيروز ليست لفيروز؛ هي خطينة من خطايا فيروز أن غنت مثل هذه الأغاني. كانت علا، بعكس محمد، ترى أنها من أفضل عشر أغان لفيروز. لسنوات اختلف محمد وعلا حول الأغنية. تطلب من خالتها أن تعيد الأغنية وأن ترفع الصوت. تتأمل الأبراج اللاإنسانية. "وجك ما كان يفارقني وجرب أسبح ويغرقني." تبتسم لهذه الفكرة الحزينة: أغاني الحب التي يكرهها أخوها هي ما بقي منه لها. تنسى تغريد وتستمع إلى فيروز مأخوذة كمتصوفة.

تجلس تغريد صامتة في بيت عمتها. يدور الحديث حول "داعش" وأحداث دير الزور. تسألها أختها بصوت ممتعض، "ليش ما عمتحكي معنا ست تغريد. شو ما بدك تقيمي من بالك مقصوفة الرقبة يلي شفتيها اليوم؟"

تنسحب تغريد إلى غرفة النوم. تتحجج بوجع رأسها. تدخل أمها غرفتها قبل النوم. تحدثها عن الإرهاب، عن المؤامرة الكونية، عن القائد الخالد وعن الرئيس الشاب. تشرح لها أن المعارضين لو أردوا مصلحة سوريا لوقفوا إلى جانب الدكتور بشار في حربه على أمريكا وإسرائيل.

تهز تغريد برأسها.

"بتعرفي ماما، محمد كان يحبك كتير"

تحاول تغريد أن تنتزع نبرة تعاطف من الأم، "الله يرحمه" تكفيها.

ترد الأم بنزق، "سكري هالسيرة تغريد، أبوكي بينجلط إزا بس سمع

هالحديث".

تحاول تغريد النوم. تتذكر النقاش المرح بين علا ومحمد حول أغنية فيروز. استفزت تغريد علا بوقوفها مع محمد. لم يكن محمد يجالسهم كثيراً، ولكنه أحياناً يشرب القهوة معهم صباحاً حين تنام تغريد عندهم. تتهمهما علا بتحجر المشاعر؛ يتهمانها بالسطحية وبعبادة فيروز.

لم تفكر تغريد بعلا منذ مقتل محمد. قبلت قصة أبيها وعمها الرسمية عن الأحداث بشكل كامل وقررت أن تقطع علاقتها بكل من يتعاطف مع الإرهاب. أخبرها أبوها أن المعركة ستطول، وأن علينا أن نقف خلف السيد الرئيس. يوم مقتل محمد، منعها من الاتصال بعلا. كانت تغريد محتارة، ولكن دموع أمها المتوسلة حسمت الأمر. بعد ذلك، عاشت تغريد الحياة التي أرادها لها أبيها: الفتاة العلوية الملتزمة بسقف الوطن، مهما تكن التضحيات.

اليوم أعادت رؤية علا لتغريد كل ما كان يعتمل في صدرها. تردد لنفسها أنها كان يجب أن تتصل بعلا للتعزية بمحمد. قبل بداية أحداث درعا بأسابيع، طلب محمد من تغريد أن يراها "كي يتعرف عليها أكتر". ذهبت تغريد مع محمد مرتين. كان مرتبكاً جداً في المرة الأولى. في المرة الثانية كان مرتاحاً. لم تضحك تغريد كما ضحكت في ذلك اليوم. لم تقع في الحب، ولكنها كانت ربما ستقع في حبه لو لم يقرر ألا يتصل بها ثانية. ما حصل كان سريعاً جداً، ككل شيء في هذه السنين. أخبرها على الهاتف أنه سيذهب إلى دوما لعزاء أحد أقارب صديقه. لم تصدق تغريد ما سمعته. ما الذي يفعله محمد مع الإرهابيين؟ حاولت أن تكون مهذبة.

"دير بالك. دوما معباية إرهابيين وسلفيين"

لم تذكر ما كان رده بالضبط: شيء ما عن القتلة، وعن عمها.

لم تر تغريد محمد أو تكلمه بعد ذلك اليوم.

قُتل محمد برصاصة قناص في رأسه في مظاهرة في دوما بعد أسبوعين من تلك المكالمة.

-٢-

كانت علا لا تحب الأرقام التي لا تعرفها. حدس ما يجعلها دائماً تتوقع الأسوأ. خرجت إلى الشرفة لتجيب على الهاتف. عندما سمعت صوت تغريد، شعرت بالضيق. قالت تغريد أنها تود أن ترها. ارتبكت علا. لم تكن

تريد أن تر تغريد، ولكنها مهذبة، مهذبة جداً كما كان يقول محمد مستفزاً. لم تستطع أن تقول لا. اتفقتا على أن تلتقيا مساء. ربما كان محمد محقاً. تعتقد علا أحياناً أن الناس يرون فيها شخصية ضعيفة بسبب تهذيبها. حين عادت كانت عائلة زوجة ابن خالها قد بدؤوا بوضع الطعام على الطاولة. تشعر علا بالحيرة. ما الذي سيقوله محمد؟ هل كان ليحبذ أن ترى تغريد؟ ربما، فقد كان منفتحاً على العلويين ويود إقناعهم بخطئهم. ولكنه كان أحياناً يظهر عداءً لهم، خصوصاً بعد المجزرة في درعا التي ذهب ضحيتها خمسة أفراد من عائلة صديقه.

لم يكن محمد صديقاً لعلا بالمعنى المباشر، ولكنه كان قريباً منها ويعتني بها بصدق حين تحتاجه. أما في الأحوال العادية فكان بعيداً. منذ وفاة والدها حاول محمد أن يلعب دور رجل البيت. تتذكر علا ما حدث حين فسخت خطوبتها، كان متفهماً. أخذها إلى العشاء وأخبرها أن الأمور ستكون على ما يرام، لا حاجة للدراما. كان منفتحاً، التقط صورة لها مع تيم حسن في المطعم في ذلك اليوم. تبتسم حين تتذكر كيف وضع تيم يده على كتفها، فيما هي تفكر بنظرات محمد المستنكرة.

حين سمعت أنهم سيقدمون الشاكرية، تذكرت أن محمد كان متطلباً فيما يتعلق بطعامه؛ الابن المدلل للأم. كان يكره بعض أنواع الطعام، كالملوخية؛ ويفضل أكلات اللبن، كالشاكرية؛ لم يكن يحب الإجاص والدراق، ولكنه يعشق البطيخ. مضى على دفن محمد أكثر من سنة ونصف. اعتادت علا على فكرة غيابه، ولكنها مازالت تجد صعوبة في أكل الشاكرية أو الملوخية. تقدم عائلة زوجة ابن خالها الطعام وهم يشتكون من أن اللحم هنا ليس كالذي في دمشق. تقول علا إنها لا تحب الشاكرية. تحلف أم الزوجة على علا بأن تتذوق ولو صحناً صغيراً. تبدو علا محاصرةً، كيوم الجنازة حين أجبرتها ابنة عمها على ابتلاع بضع لقيمات من "الأوزي". فجأة يجتاح علا شعور عميق بالخذلان، بأن محمد خذلها حين قُتل. تُركت وحيدةً، لا إخوة ولا أخوات، والآن صحن الشاكرية. تتمنى علا لو أن في استطاعتها أن تخبر الجميع عن محمد، عن محبته للشاكرية، للفتة بسمنة مع الكثير من البصل، عن حبه السري لنانسي عجرم، عن قميصه الأخضر القديم الذي رفض أن يتخلص منه، عن عاداته السيئة: مشاهدة التلفاز بصوت عالٍ، قص أظافره في غرفة الجلوس، إهماله للواجبات العائلية في الأعياد، نسيانه الدائم لشحن هاتفه قبل النوم. لا تريد أن تتكلم عنه طوال الوقت، بل فقط في مثل هذه المناسبات. أليس

عادياً أن تخبرهم أن الشاكرية من أكلاته المفضلة؟ مع مرور الوقت، ترى علا في وجوه الناس مللهم من قصص محمد. تصمت علا، تنكسر للمرة الألف. تأكل الشاكرية وهي تستمع إلى ابن خالتها يصف شهر العسل في ماليزيا.

في طريق العودة إلى بيت خالتها، تحاول كبح مشاعرها. كانت تفكر بصورة تغريد مع أسماء الأسد، الصورة التي تظلل حسابها على الفيس بوك. تبدو تغريد فرحة بلا حدود. ابتسامة أسماء ميتة، فيما ابتسامة تغريد تملأ المكان. توحي الصورة بأن أسماء الأسد هي من طلبت من تغريد أن تتصور معها.

تطلبها على الهاتف.

"ما فيي شوفك. حاسة أنو بكير. محمد ما رح يكون مبسوط.... وأنت حتى ما إجتي عالعزا يا تغريد"

"علا، والله كنت بدي أجي. أهلي ما خلوني."

تبدأ تغريد بالبكاء.

ترتبك علا مرة أخرى.

"يا تغريد أنت قلتي عالتلفزيون انو كلنا ورا السيد الرئيس شو ما صار.أنا سمعتك، وعدت الكليب شي مية مرة. شو ما صار يا تغريد؟"

لا رد من تغريد.

"بتعرفي شو كان قصدك بشو ما صار؟"

تبكي تغريد بحرقة.

"يا الله يا تغريد.

يا الله يا تغريد.

يا الله يا تغريد.

ولا تلفون حكيتي معنا... ولا حتى الله يرحمو.

يا تغريد ما بيصير هيك.

يا تغريد ما بيصير هيك"

"يا علا أهلي ما خلوني. قالوا كلكون بدكون تدبحونا..."

"ميشان الله يا تغريد بلا حكي فاضي. محمد مين بدو يدبح؟ محمد ما كان بيقدر يدبح جاجة.."

"وهالعلوية يلي انخطفوا؟ والناس يلي انقتلت بمعلولا؟ والوهابيين بدوها؟"

تنهي علا المكالمة.

عادت تغريد إلى دمشق بعد ثلاثة أيام.

علا ستبقى في دبي ضيفة ثقيلة على خالتها.

-٣-

لم تعرف علا أن محمد، قبل مقتله بأشهر، أصبح يستمع إلى الأغاني التي كان يكرهها سابقاً: "من عز النوم بتسرقني"، "آخر أيام الصيفية"، "خضرا يا بلدي خضرا"، "أهواك"، "رق الحبيب"، وغيرها.

كان محمد أيضاً يأكل الملوخية سراً مع أصدقائه.

أراد أن يخبر أمه بأنه يأكل الملوخية الآن.

لسبب ما، لم تتح له الفرصة.

في اللقاء الأخير وعدت تغريد محمد بأن تطبخ له الملوخية، على شرط أن يخبر علا بأن "من عز النوم بتسرقني" من أفضل أغاني فيروز.

وافق محمد.

تتساءل تغريد بخبث عما ستفعله علا به حين يعترف بهزيمته؟

في شوارع باب توما تتردد ضحكات محمد وتغريد الصاخبة.

رجلٌ وامرأة على الشاطئ.

الرجل ينظر إلى المرأة، أما المرأة فمأخوذة بالبحر.

وجههما للبحر ونحن نقف خلفهما.

أشعر بكارن تغلق الباب ثانيةً.

تخفي اللوحة ملامحهما، لا نرى إلا البحر، وشكلهما الخارجي بالطول الكامل.

كان علي قول شيء ما، لا أعرف ما هو بالضبط.

تبدو المرأة متوحدة مع البحر، مكتفية به. آسف على الرجل. شيء ما في طريقة وقوفه توحي بأنه سيقول شيئاً ما، شيئاً عن رغبته في الوصول إليها. لا يبدو أنه سيقول ما يريد قوله، ما يجب قوله. أترك اللوحة وأتجه إلى الغرفة التالية في المعرض.

أتردد قليلاً. هل ما زلت متعلقاً بكارن؟

أعود إلى اللوحة.

اسم اللوحة:" الوحيدان".

"أجد صعوبةً في التواصل مع الآخرين، كل الآخرين"، تهمس كارن.

"أحياناً، أجد من السهل أن أتواصل مع البعض دون كلام، أحياناً معك"، تضيف باطمئنان.

أبتعد عن اللوحة قليلاً. شعرتُ بالإطراء لما قالته كارن. هل أتواصل أنا أيضاً معها دون كلام أحياناً؟

"أخاف أن أفقد هذه القدرة تماماً في يوم من الأيام".

تنظر إلى كأسها حيرى.

يمتد البحر، لا نهاية له.

أتساءل إن كان "مونش" من سفى لوحته أم أن أحد تلامذته أضاف الاسم لاحقاً.

"ليس الأمر أنني لا أجد من يفهمني. عندي بعض الأصدقاء، وعندي أمي. ولكنني لا أملك القدرة على التواصل. أريد أن أضيف شيئاً ما لحياة الناس من حولي، ولكن لا أعرف كيف. في عيد ميلادي الخامس عشر كنت أنا وأمي وصديقة واحدة من المدرسة. من بين كل المدعوين، لم تأت إلا هذه الصديقة. أفكر أحياناً أنني يجب أن أكتفي وأرضى بهذا. ربما لا أعرف كيف أرضى... أعرف أنني سأبقى وحيدة."

امرأة في خمسينياتها تتأمل اللوحة. ألتفت إليها، تبتسم تأذباً.

هل ترى في اللوحة ما أراه؟

أمضت كارن سنتين في مصح نفسي في سنوات مراهقتها. لم تخبرني إلا بعد أن مارسنا الجنس. مطرٌ خفيف جعل بوحها بما رأته في هذه السنوات ضبابي، كأنها تكلّم نفسها. أداعب شعرها، وأتخيل كارن في الثالثة عشر من عمرها تجلس مكتئبة في إحدى زوايا المشفى الريفي المنعزل.

"لم أكن آكل. كنت نحيلة جداً، جداً".

تمسح على باطن يدي بأصابعها الرقيقة.

"صديقي الوحيد كان هادئاً في معظم الأحيان. كل مساء، كان يركض في الردهة صارخاً أنه سينهي حياته. كنت أتمنى لو استطعت أن أركض في الردهة صارخةً مثله. لم أجرؤ قط على فعلها".

ضوء خفيف ينير الغرفة من مصباح زينته بنفسها.

لا قمر اليوم في السماء.

"ليس الأمر أنني أقل وحدةً الآن، ولكن الوحدة في المصح مختلفة. هناك الوحدة أعمق. لا أحب الوحدة، ولكنني لا أعرف كيف أتخلّص منها".

البحار تستدعي الوحدة. أليس هذا ما تقوله اللوحة؟

الليالي الظلماء أيضاً تستدعي الوحدة.

يجلس رجل على الدكة متأملاً اللوحة، أشعر أنه يراقبني. أبتعد متظاهراً بأنني أريد أن أرى اللوحة من زاوية مختلفة. كارن أيضاً كانت تخشى أن يراقبها الناس. بعد أشهر من علاقتنا أسرّت لي، "أحب أن تراقبني وأنا أغير ملابسي، وأنا أنظف أسناني، وأنا أبتعد عنك في محطة الباص، كأنك تهتم بي حقاً. كنت أخشى الرجال سابقاً. كلهم يراقبونني بطريقة غريبة ومزعجة. أنت مختلف".

أقرر أن أعود إلى الوحيدين بعد جولة في المعرض. أتجول مشتتاً. لا شيء يجذب انتباهي. في إحدى رواياته، آنا كارنينا ربما، يروي تولستوي على لسان بطله أنه لم يستطع يوماً أن يستمع إلى أمسية موسيقية بتركيز. تأخذه الموسيقى إلى أماكن أخرى، إلى شواغل شخصية. يواسيني أنني أشارك تولستوي نفس الحماقات.

في زيارتنا الأخيرة للمتحف الوطني في "ترافلكر سكوير" كانت كارن في قمة السعادة. تأملنا ديغا لفترات طويلة. عندما خرجنا من المتحف، كانت درجة الحرارة تحت الصفر. ضممتها لمدة طويلة.

"لا أريد لهذه اللحظة أن تعبر. أتمنى أن يتوقف الزمان هنا".

قبلت يدها الصغيرة.

في إحدى لوحات كارن المفضلة المعروضة في المتحف يصوّر ديغا امرأة تمشط شعر امرأة أخرى. كنا نقف أمام اللوحة مسحورين. يطغى اللون الأحمر على اللوحة. المرأتان صهباواتان، والخلفية حمراء خفيفة.

في ذاك المساء طلبت من كارن أن أمشط شعرها، رفضت. سألتها عن المرهم ذي الرائحة النفاذة الذي كانت تدهن شعرها به. دمدمت بصوت منخفض، "مشكلة نفسية، لا تسأل...".

كانت تعتقد أن شعرها غجري، لا يليق بسيدة نبيلة.

حاولت أن أحتج، ولكنها أسكتتني بنظرة حزينة.

كان عليّ أن أقبلها في تلك اللحظة، وأن أقول ما أردت قوله.

فجأة، أجد من يحدق بي بثبات. أشعر بانزعاج من هذه النظرات. أبتعد ببطء. في اللوحة، "شارع في أسجارستراند"، المرأة وحيدة خلفها بعض

الأشجار. نرى المرأة في منتصف الجزء الأسفل من اللوحة. تنظر المرأة إلي مباشرةً. مش من الجنون في نظرتها الثابتة. تبدو ككارن عندما لا نتواصل. ليس الأمر أمر تصرفات جنونية، بل حالة من الوحدة تعصف بها أحياناً. تكلّمني دون أن تنظر إلي. شيء ما في نظراتها يجعلها غير قابلة للتواصل. أحياناً كنتُ أدخل غرفتها وهي مطرقةً، تمضي إبهامها بنظرة ساهمة. لم أكن أجرؤ على التفوه بحرف. أعود إلى غرفة الجلوس. بعد حين، تأتي وتجلس في حجري دون أن تتكلم. تعانقني بصمت لفترة قصيرة. ثم تهمس بدلال، "شاي مع حليب، كما يشربه الانكليز؟".

أطيل النظر بالمرأة.

بعد مجزرة "الحولة"، كنت آكل على مهل.

"ما بك؟"

"لا شيء. الأمور سيئة في سوريا. هذا هو السيناريو الأسوأ".

تتمتم، "قلت ذلك الشهر الماضي."

أضبط أعصابي وأتجاهل ما قالته. أخرج كي أدخن. لقد نسيت البقالة التي طلبتها هذا الصباح، ولم أغسل الأطباق كما وعدتها. حتى القُبل كانت باردة الأسبوع الماضي. كارن منهكة جسدياً. تعمل ثلاثة أيام في الأسبوع، وتدرس للحصول على درجة الماجستير في الأدب الانكليزي. أشعر أنها تريد أن ترتاح في الأماسي، لا تريد الكلام عن مجازر لا تنتهي.

في السرير، تقول بصوت بعيد، "الجنس لم يكن جيداً، هل مللت؟"

أشعر بضربات قلبي تتسارع.

"سيتحسّن الأسبوع القادم، أنا متعب"

كانت تنتظر مني المزيد. لا أعرف كيف أناقش الجنس حين يسوء، تجربتي متواضعة.

تهمس كارن في أذني، "أريد أن أساعد، ولكنني لا أفهم ما يحدث بالتفصيل".

أقبلها على أنفها "أميرتي الصغيرة، ستتحسن الأمور قريباً"

تدفن رأسها في صدري.

ينظر مونش إلي مباشرةً من خلال اللوحة. نوع من التواطؤ السري بيني وبين المرأة، بيني وبين مونش، بين مونش وبين كارن؛ كلنا نعرف أن الأمور ليست على ما يرام.

التقيت كارن آخر مرة قبل سفرها إلى ألمانيا. شعرها أقصر مما كان، ووشم صغير على رسغها رسمته بعد انفصالنا. فرحتُ بلقائها كمن يلتقي بفرد من العائلة لم يره لسنوات. أخبرتني أنها ستستقر في برلين مع شريكها الجديد.

حدقت في عيني مباشرةً، "أموري أفضل قليلاً الآن. أواعد شاباً لطيفاً جداً، وأعتقد أنه يحبني. أشعر بالسعادة."

تصمت للحظات. أحاول قول شيء ما.

تقاطع أفكاري، "لا داع لقول ما لا يقال. لا تفكر كثيراً. إن وجدت من يجعلك تشعر أنك مرغوب، فتمسك به. أنت وحيد بالفطرة، لا تبحث عن امرأة وحيدة. تذكرني دائماً، وأنا سأتذكرك دائماً."

قبلتني على خدي بخفة، وركضت كي تلحق بصديقاتها.

تعرف كارن أن الأمور ليست على ما يرام، أقصد أن الأمور ليست على ما يرام دائماً. تحيط بنا القسوة في هذا العالم. رغم ذلك، تبذل قصارى جهدها كي تساعد الآخرين، كي تسعدهم، وترى أنها لم تبذل جهداً كافياً. بعض المسرات الصغيرة تهزم القسوة بين حين وآخر، ولكن القسوة تسود في النهاية.

في الغرفة الأخيرة من المعرض أعمال مونش العجوز. أجلس متعباً. مونش يرسم نفسه في لوحات متعددة. هل سأهرم كمونش؟ هل ستهرم كارن؟ يبدو ذلك مستبعداً. كانت كارن في الخامسة والعشرين، ممتلئة بالحياة. تتكلّم أربع لغات وتملك حساً فنياً أصيلاً. تصنع هدايا أعياد ميلاد أصدقائها بنفسها، وتخبز لهم الحلويات بأنواعها. تكره فلم العزاب وأشعار إليوت؛ تحب سينما فيلليني وشعر كافافي؛ وتستمتع بالمخلل بأنواعه، وتكثر من الثوم والبصل في الطبخ. تحاول أن تأكل التفاح كل يوم، رغم أنه يجعلها حزينة. تأخذ دروساً في الرقص والعزف على البيانو؛ تعلم أنها تأخرت قليلاً، ولكنها لا تكترث. أقف على باب المطبخ متأملاً وحدتها. كانت تترنّم بلغتها الرومانية مستمعةً إلى موسيقى من سفاعات الأذنين، فيما هي تجلي الصحون. لم تكن نحيلة، بعض الوزن الزائد في الوركين والبطن.

حركاتها خرقاء قليلاً. تبدو كارن مكتفيةً بذاتها. لا متعة تفوق متعة أن تحب فرد بعينه من أفراد البشرية. لكل منا وحدته الخاصة، كبصمة العين. أحياناً، وفقط أحياناً، تذوب وحدتك في وحدة الآخر. هذا هو الحب. أفكر بأن أذهب إليها وأقبلها. أتردد. أخشى أن أحبها أكثر. أعلم جيداً أن الأمور تسوء، ولا أعرف ما الذي ينبغي فعله. لم نتشاجر أبداً، ما زلت قريباً منها. كل ما في الأمر أننا فقدنا شيئاً ما.

في نسخة مبكرة من اللوحة تقف المرأة وحيدةً في المكان ذاته وبالوقفة ذاتها. المرأة هناك، والبحر يدعوها إليه. رسم مونش الرجل لاحقاً. لم يتغير شيء في المرأة. لا شيء، إلا أن الرجل يحاول قول شيء ما. لأكثر من عشرين سنة كان مونش يعيد رسم اللوحتين مع تغييرات طفيفة هنا وهناك. أغادر الغرفة الأخيرة عائداً إلى الوحيدين. أجلس أمام اللوحة لفترة طويلة. هل هي الوحيدة دوماً؟ أم أنني أنا الذي لم أعرف كيف أخرجها من وحدتها؟

أمد يدي إلى يدها. أقبلها في أذنها، أنفها، عينيها وجبينها.

أهمس، "أريد أن تحتفظي بذكرى لطيفة عن الأشهر الخمس الماضية".

تجيب من خلال الدمع، "بالتأكيد".

أفتح الباب.

أخرج على مهل.

أسمع صوت الباب يغلق خلفي.

يلتفت الرجل ويبتسم لي.

يأخذ حجراً من الشاطئ ويرميه إلى البحر بشقاوة مراهق.

يسير بخفة حتى يختفي في يسار اللوحة.

تبقى المرأة وحيدة، تتأمل البحر الممتد إلى ما لانهاية.

-١-

"سارة، اسمي سارة. لقد وصلت باكراً. مازال هناك متسع من الوقت لإقلاع الطائرة".

أقترب منها أكثر كي أشعل لها السيجارة. تبتسم حين يغطي شعرها الطويل وجهي.

"آسفة، الريح قوية اليوم"

"لا بأس"

تشبه سارة بسمرتها الخفيفة الفتيات العرب.

"إلى أين تسافر؟"

"لست مسافراً. وصلت الآن من اسطنبول"

"آه، اسطنبول. مدينة جميلة"

"وأنت؟"

سارة ثرثارة، أخبرتني بتفاصيل حياتها. كانت ذاهبة إلى برلين لتزور أباها المريض جداً. أمها تسكن في مدينة بعيدة عن برلين مع صديقها الجديد. الأب متدين جداً. سألتني إن كنت أؤمن بوجود الله، وإن كانت سترى والدها مرة أخرى بعد وفاته. لم تعطني فرصة للإجابة، أكملت حديثها بسرعة. هناك قوة ما في هذا العالم، وهذه القوة لها مظاهر مختلفة. البعض يسميها الله، آخرون يفضلون الكلام عن وحدة الوجود.

سألتني، "من أين أنت؟"

"سوريا".

تصمت للحظات، ثم تقول بشك، "هناك حرب في سوريا".

"نعم، هناك حرب".

تقترب مني، تمسك بيدي وتقول:

"باستطاعتك تغيير كل العالم. كل ما تحتاجه هو أن تؤمن بالطاقة الإيجابية التي بداخلك"

يرن هاتف سارة النقال. تبتعد قليلاً كي تتكلم.

رولا قالت الشيء نفسه. ترافقني إلى الباب، تتلعثم وهي تقول شيئاً ما عن حاجتها إلى النقود. تفتح الباب وتنتظرني كي ألبس حذائي. يخرج طفل عار من البيت المجاور ويركض باتجاهها. تصرخ فيه، يركض عائداً إلى ذلك البيت. تقترب مني بصدرها العارم شبه المكشوف، أشم رائحة نفسها المقززة. تقبلني على فمي بملل. أشعل سيجارة، في انتظار خروج طارق. أخرج مائة دولار وأعطيها إياها.

" ما معي غيرها رولا، حاسبنا أبو النور تحت نحنا."

نقف على الباب مرتبكين.

"رولا، طارق لسا جوا "

" أيه، صح"

تغلق الباب. أجلس على كرسي بجانب الباب. تجلس قبالتي.

تسألني، "رح تجي مرة ثانية؟"

"حسب التياسير يا رولا. الشغل مو كتير ماشي هاليومين. وضعي شوي مكركب"

"الله بييسر."

"أنت عمتدرسي شي رولا؟"

"أيه، سنة تالتة اقتصاد"

تبتسم سارة، "سنة ثالثة اقتصاد. بعد التخرج سأعمل في لندن. عم والدي يملك شركة كبيرة هنا. لا أحب لندن، ولكن الرواتب أفضل من إيطاليا. كما أنني لا أريد العودة إلى إيطاليا الآن. سأمضي بعد الوقت في الترحال. أولاً أمريكا الجنوبية، ثم كوريا وماليزيا. بعد ذلك سأستقر في لندن لبعض الوقت. على المرء أن يتعلم، والسفر أفضل طريقة للتعلم. أريد ان أرى العالم، أن أفهم الثقافات المختلفة. هل تعلم أن اليابانيون يلبسون

الأبيض في الجنازات؟"

"لا. لم أكن أعلم ذلك."

"ابق هنا بجانب حقيبتي. سأذهب لأشتري علبة سجائر"

"فيكي تاخدي باكيتي، معي باكيت تاني بالسيارة"

"سيارتك تحت؟"

"لا. إجينا مع أبو النور. صحي رولا، المرسيدس يلي واقفة تحت لمين؟ خوفتني وقت شفتها"

"لا تخاف. هي لواحد من معارف أبو النور. مدري بأي فرع بيشتغل. أبو النور بينسق معو بالعادة ميشان يضل شغلنا ماشي."

عادةً لا تحب هؤلاء النسوة الكلام عن شؤون عائلية في اللقاء الأول. تبدو رولا أكثر انفتاحاً منهن.

"أبو النور بيقربك شي؟"

"أيه، قرابة بعيدة."

"والولد ابنك؟"

"لا، ابن أختي. أختي كانت تشتغل ببيروت، وما عاد سمعنا عنها شي من سنة. صرلي بس ٢ تشهر بهالشغلة. ما عبمتعلم بسرعة يا عدي، كلون عمبقولولي أنو ما عمبتعلم بسرعة. أنت شو رأيك؟"

"برأيي ما عمتتعلمي بسرعة".

تبتسم رولا بحزن. ابتسامتها الحزينة تمس القلب، كمسرحيات تينيسي ويليامز.

"يعني ما انبسطت أنت كمان؟ بتعرف، رح قلك شغلة بس بلا زعل. أنا ما بحب الناس يلي متلك يجو هون. بيتأففو وبيتغالظو وبيطولو. جيب عامل أو شوفير ميكرو بيخلص بسرعة، بيشرب بيراية، وبيطلع مرزق آخر رواق."

سارة تصرخ بالإيطالية وهي تتحدث على الهاتف. يلتفت المارة باستهجان. تنظر سارة إلي باحثةً عن دعم. أبتسم مشجعاً.

أندم على ما قلته لرولا، "الحق معك رولا. بس أنا ما قلت ما انبسطت."

تبتسم. لم تكن رولا جميلة. صدرها جيد، وكذلك مؤخرتها. ولكن وجهها لم يكن جذاباً، وعلامات الإرهاق باديةً عليه. لو كانت رولا غنية، لعرفت كيف تلفت النظر إلى مفاتن جسدها.

"طيب، متل ما بدك. أنت كتير حباب وظريف. الله يسهلك. ما بعرف كيف يعني هيك، حسيتك مو مرتاح بكل الشغلة. ما عمبعرف أشرحلك. فهمت ما؟"

"فهمت. مو قصدي شي رولا. بس أنت كمان مو مرتاحة كتير."

"لا لا... أنا مرتاحة. بتعرف ليش؟ لأني بعرف دائماً كيف أشتغل عحالي. بتعرف شي عن الطاقة الإيجابية؟"

"لا والله، مو كتير؟"

"سماع، أهم شي أنك تعرف الطاقة الإيجابية يلي جواتك."

أخذت رولا سيجارة من علبة سجائري. أشعلتها وتابعت حديثها، "مشكلتك ما بتعرف شو في جواتك عدي. جواتنا كلنا في طاقة إيجابية بتخلينا نعمل كل شي بدنا ياه. من يومين إجا تلات زباين لهون. أنا عجبني واحد منون. بس أبو النور دائماً بيقول وقت يكون في زباين جداد ما لازم نحكي شي. الزباين بينقوا. إزا أنت شاطرة وعجبك واحد منون، زبطي جوا. أبو النور بيدير بالو علينا كتير. قال الزباين إزا نحنا نقينا منون، بيتدايقوا. معو حق. هنن عميدفعوا المساري."

"معو حق أبو النور. هاتي لشوف شو عملتي بالطاقة الإيجابية تبعك؟"

"كان في واحد خجلان. رفيقو عمبيقلو إزا عجبتك أم الفستان الأخضر خدا. أنا كان بدي الشب الخجلان..."

قاطعتها، "مين كان بالفستان الأخضر؟ انتي ولا وحدة تانية؟"

"سهى كانت بالأخضر. أنا كنت خايفة الشب يلي بيعرف يحكي ياخدني. كان منظرو بيخوف. أحياناً في زباين ما بتعرف شو تعمل معون. كتير جفصين وقليلين أدب. مو متلك، أنت يعني..."

"الله يخليكي. أنا حباب"

" أيه. مو كتير يعني". تضحك بصدق، وتتابع:

"المهم، ما خليتو ياخدني. ضليت عمبعطي طاقة سلبية، وعمبعطي طاقة إيجابية للخجلان، لحتى الخجلان أخدني. شفت، فيك تعمل يلي بدك ياه. أنت لازم تتعلم هالشي عن حالك."

تعود سارة، تبحث في حقيبتها عن شيء ما. تُخرج كتاباً عن التفكير الإيجابي. تشرح لي أن كل الفلاسفة كانوا يبحثون عن كيفية تحفيز الإنسان على هذا التفكير. "أفلاطون مثلاً، وماركس ونيتشه. كلهم متشابهون، كلهم كانوا يبحثون عن شيء واحد. "

تُغريني الفكرة. أردد، "أفلاطون وماركس ونيتشه كانوا يبحثون عن شيء واحد"

"اسمع، عليك أن تشتري هذا الكتاب..."

يرن هاتفها مرة أخرى.

يخرج طارق، لا يبدو مرتاحاً.

"يلا معلم. خالصين نحنا"

يبتسم لرولا، "شلون هي معك؟ التانية مو ظريفة."

"رولا ما في منها"

يقترب من رولا، يقبلها على فمها، ويضع يده على صدرها. تبعده بعنف.

"حل عني. شو شايفني؟"

يبتعد، "ليك القحبة. شبك؟ ليش استشرفتي؟"

"بس يا طارق، تركا. إزا خالص خلينا نمشي"

"لك شبك أنت التاني. خلينا نفهم من القحبة شو مشكلتها. ليش استشرفتي ولي؟"

يقترب منها ببطء.

"بس يا طارق. حل عنها للمخلوقة"

"كرمال الأنبيا لا تعملّي حالك أكابر. هيك عالم ما بتجي غير

بالمعس"

تحتج رولا بصوت واهن، "ليش هيك عمتحكي؟ أنا ما عملتلك شي."

يقلدها طارق بصوت نسوي، "ليش هيك عمتحكي؟ أنا ما عملتلك شي".

يقترب منها أكثر، فيما هي تبتعد لتقف بجانب باب الحمام.

"ليش تحيونتي وقت قربت منك؟"

أقف وأقترب من طارق، "مشان الله يا طارق بس. خلينا نمشي".

أكتشف أن الرجل ثمل تماماً.

"عدي بس بدي أفهم منها ليش عمتقلل أدب."

يقترب منها مترنحاً.

يأتي صوتها خافتاً، "أنا ما قللت أدب"

"لكن ليش استشرفتي عطيزي ولي؟"

يغلق قبضة يده اليمنى. يقترب منها أكثر. فيما هي تتوارى إلى الزاوية. أمسك يد طارق بهدوء.

"طارق، خلينا نمشي."

"لتعتذر القحبة."

تخرج سهى من الغرفة. تطلب من رولا بصوت قوي وواثق أن تعتذر.

"اعتزري يا رولا. طارق، أنا ورولا آسفين... رولا، أبوه شغلة كبيرة. لا تعلقينا بمشاكل"

يأتي صوت رولا بعيداً، ميتاً.

"أنا آسفة. والله ما كان قصدي شي"

يتوجه طارق بكلامه إلي، "شفت، هيك شكيلات ما بيجو غير بالمعس. تركني. ما رح أضربها"

يثجه إلى الديوان.

يجلس بتثاقل.

"تعي لهون لشوف لكن."

تتجه رولا إلى طارق. يقف فجأة، ويمسكها من خصرها. يتجه بها إلى الحائط. يقبلها في فمها، ويعبث بصدرها.

يهمس، "ما بقي تتحيوني ولي أبداً. عرفي قيمتك والتزمي حدودك"

صمتْ، يقطعه لهاثه المسموع وصوت حركة يده في صدرها.

"قولي حاضر"

تبدأ رولا بالبكاء.

"قولي حاضر. يلعن شرفك عرص."

"حاضر"

يتركها، ويتجه إلى باب البيت.

"شرّف أستاذ"

"يلا لاحقك."

يغلق الباب بعنف.

أشعل سيجارة.

تذهب سهى إلى رولا، وتبدأ بالبكاء.

"رولا، أنا آسف..."

"عدي، حميل حالك وامشي. أنا الغلطانة. "

"طيب. أنا رح..."

تتجه رولا إلي، ما زالت ترتجف باكيةً.

"لا تعملي فيها حباب. أنا الحق عليي، نسيت مين أنتو ومين أنا."

"لك لأ، أنا كنت بدي قول..."

"مع السلامة، عدي"

أتجه إلى الباب. أفتحه. تأتي رولا مسرعة وتهمس في أذني، "الطاقة تبعي ما خلتو يضربني. كنت بعرف انو ما رح يضربني. قلتلك فيك تعمل

كل شي بدك ياه بطاقتك الإيجابية."

ألتفت إليها.

أمسك يدها وأقبلها.

أعطيها مائة دولار أخرى.

تبتسم بطيبة، "شكراً عدي".

لم أر رولا بعد هذا اليوم.

تثرثر سارة لبضع دقائق عن صديقها القديم وعن خلافاتهما.

تغادرني وهي تصرخ على هاتفها النقال، ترسل لي قبلة في الهواء.

-٢-

مساء، تواصلت مع طارق للمرة الأولى منذ سنين، عبر الفيس بوك.

زودني طارق بما أريد معرفته.

طارق يعيش في اسطنبول، وعائلته في دبي. غادر أبوه، الوزير السابق، البلد مع بداية الأحداث. لم يتخذ موقفاً واضحاً، ويرفض الكلام في السياسة.

أبو النور يعمل في اللجان الشعبية التي جندها النظام من المدنيين وسلّحهم في مناطق متعددة.

سهى نزحت مع عائلتها إلى الأردن.

رولا قُتلت في قصف الجيش الحر على جرمانا بالهاون.

لم تشفع الطاقة الإيجابية لها إذن، بالرغم من أنها شفعت لي.

حين قصف النظام المنطقة التي نمنا فيها في حلب بكثافة، تذكرت رولا وابتسامتها الحزينة. حدثتني نفسي أن الطاقة الإيجابية لن تخذلني.

استلقيت على السرير مستحضراً طيفها.

دفء جسدها ما زال محسوساً.

دفنت رأسها في صدري عندما ضممتها عارية.

صوتها الهادئ دافئ أيضاً، "خليك ضامنني كمان دقيقتين. ولا مرة حدا ضمني هيك".

-١-

كنت أتجول في خيمة التعريف بالإسلام المنصوبة في ساحة الجامعة بكسل. جلست النساء بعيداً عن الرجال. طالب مسلم يشرح عن قضية فلسطين، ويتفوه ببعض الجمل المعادية لليهود بعنصرية غير مقنعة. المستمعون الأوروبيون مرتبكون جداً. أتت مريم لتلقي التحية. تكلمت معها بالعربية الفصحى، ردت بخجل. التوتر بينها وبين الحاضرين كان محسوساً. غادرت على عجل حين اقترب منا أحد شيوخ المسلمين في المدينة. كان أحد أولئك الإنكليز اللذين أسلموا وجعلوا قضايا المسلمين والدفاع عنها همهم الوحيد. غادرت الخيمة عندما بدأ الشيخ الإنكليزي يشرح أن الإسلام دين روحي على عكس المادية الغربية.

مساءً التقيت بمريم في مركز اللغات في الجامعة حيث أدرس اللغة العربية. لم أتوقع أن تكون مريم صائمة. اعتذرت لها عن فنجان القهوة الذي أحضرته. سألتها إن كانت تمانع أن أشرب قهوتي. ضحكت وقالت إنها لا تتدخل في حياة الآخرين. طلبت من مريم أن تقرأ نصاً مملاً عن دمشق والحياة الهانئة فيها. سألتني بالإنكليزية عندما أنهت القراءة:

"لماذا لا تصوم؟"

أجبت شارداً، "لا أعرف. ربما لأن الإفطار يتأخر هنا إلى التاسعة مساءً."

"وأنت، لماذا تصومين يا مريم؟"

"لأن أبي كان يحب الصيام كثيراً... آه، ولأنني مسلمة."

لم يكن في مريم ما يوحي بأنها مسلمة أو من أصول عربية. بعد أن أخبرتني أنها تصوم، انتبهت إلى أن ملابسها محتشمة دائماً.

"هل على المسملة أن ترتدي الحجاب؟" سألتني مريم بتردد.

"لا أعتقد، ربما من الأفضل أن تسألي أحد الشيوخ."

أخبرتني مريم أنها خاضت نقاشاً شاقاً مع المسلمين في الجامعة حول

الحجاب قبل أسابيع في حفل خيري لدعم الفلسطينيين. كان أحدهم يشرح كيف أن المرأة المسلمة لا تكون مسلمة إلا إن تحجبت. احتجت مريم على هذا. ناقشها الشباب، وبعد حين احتدوا. الشيخ الإنكليزي كان وقحاً، وأخبرها في النهاية أنها ليست مسلمة بحق.

"هل أنا مسلمة؟"

"أكيد. كلنا مسلمون يا مريم."

تقول ضاحكة، "أنت لست مسلماً."

ابتسم مرتبكاً، "أنا مسلم هنا. كلنا مسلمون هنا."

تعرفت إلى مريم في مقهى الجامعة حيث ألتقي بالعرب. كانت خجلة ومنغلقة. تم تقديمها كفتاة سورية، ولكنها أوضحت أنها لا تتكلم العربية، فقد ولدت في بريطانيا لأم بريطانية. أبوها سوري غادر البلد في منتصف السبعينيات. كانت تعمل مع عدة منظمات غير حكومية لتقديم مساعدات للاجئين السوريين في لبنان والأردن، وأخبرتني عن المنظمات العاملة في مدينتي الصغيرة "نوريتش".

"فكرت بالحجاب مرات، ولكنه يجعل الحياة صعبة هنا. كما أنني لا أفهم لم على المرأة أن تلبس الحجاب."

"صحيح. أنا أيضاً لا أفهم السر وراء ذلك."

كانت ترسم بعض الأشكال الهندسية على الورقة، ثم تظللها بمهارة.

" في حماة، معظم أقارب والدي يلبسون الحجاب. كانوا أيضاً ينتقدونني بسبب ملابسي."

"الأمور أصعب في حماة."

"حين أخبرت صديقي لورنس أنني أرتدي الحجاب أحياناً في حماة، ثار واتهمني بأنني خانعة. أن أكون مسلمة لا يعني أنني يجب أن أستسلم لما تريده عائلة والدي."

"لا أعتقد أنه منصف. ارتداء الحجاب في حماة لا يعني أنك خانعة."

لم أستطع ألا أفكر بأنها تمارس الجنس مع لورنس، بالرغم من تدينها.

أضافت بعد صمت، "أحب حماة والجو العائلي الحميم فيها... وأكرهها

جداً، جداً، بسبب القمع الاجتماعي المخيف."

" أنا أيضاً تنتابني هذه المشاعر المتضاربة."

" ربما لأن شعري ليس كثيفاً، لن يغير الحجاب في الأمر شيئاً."

ارتبكت من هذه الملاحظة.

"لا علاقة لكثافة الشعر..."

قاطعتني، "هذا ما كانت تقوله خالتي. أما بناتها الثلاث فلن يلبسوا الحجاب أبداً. هم إنكليز حقيقيون."

لم تكن مريم صديقتي لأناقشها بمواضيع عائلية.

"مريم، افعلي ما تؤمنين به. لست بحاجة إلى استشارة الآخرين. إن أردت ارتداء الحجاب أم لا، هذا قرارك"

فتحت مريم الكتاب وبدأت بحل تمرين عن الفعل الماضي.

"أحياناً أشعر أنني أعيش في عالمين مختلفين، ولا أنتمي إلى أي منهما... بكل الأحوال، لا أريد إزعاجك أكثر، فلنكمل الدرس."

غادرت مريم "نوريتش" بعد شهرين مع انتهاء السنة الدراسية وتسليمها لرسالة الماجستير في السياسات الثقافية. كانت تراسلني لفترة، ثم انقطعت أخبارها بعد أن تزوجت من شاب سوري التقته في لندن قبل سنوات مع عائلتها.

-٢-

كنت أفكر بمريم في طريقي إلى أحد المطاعم السورية في "إدجوار رود". اتفقت مع مجموعة من الأصدقاء والمعارف على تناول العشاء، ودعونا مريم التي كانت في زيارة إلى لندن مع زوجها.

وصلت متأخراً. كان الجو مشحوناً جداً. لحظة دخولي، قررت مريم وزوجها المغادرة. اعتذرت من البقية، وأخبرت مريم أنني سأرافقهما إلى محطة المترو. تكلمنا عن أبو ظبي وعن عملها في السياسات الثقافية في أحد المشاريع العملاقة في المدينة. لغتها العربية تحسنت بوضوح، ولكن مع بعض التعبيرات الفصحى وأخطاء صغيرة هنا وهناك. كان الزوج صامتاً طيلة الوقت. فجأة قال بعصبية:

"يعني أنو هاد الكلب المنحط بدو يعلمنا شو نحكي وكيف نمزح؟"

حاولت مريم تهدئته، "لا تقول كلب. حرام. أنا أعرف فادي من زمان."

"لا ستي كلب وابن ستمية كلب. يلعن شرفو عشرف كل الشواذ والعرصات بهالبلد الوسخة. هاد الحقير ما لازم ينحسب عالمسلمين ولا عالسوريين."

تبتسم مريم محرجة، "بس يا فادي. أهدا. لا يصير تتكلم عالعالم هكذا."

وصلنا إلى المحطة فيما مريم تعتذر بالإنكليزية. اعتذر الزوج أيضاً متمتماً بعض العبارات غير الواضحة.

عدت إلى المطعم حيث وجدت أن معظم الأصدقاء قد غادروا. لم يبق إلا فادي ومحمود وربا. كانوا ينتظرونني كي يغادروا المطعم. وذعنا محمود متعذراً بمشاغل سابقة. شد على يدي فادي، وحاول مواساته. طلبت مني ربا البقاء معهما.

كانت علاقتي بفادي متوترة. التقيته عدة مرات في لندن، ولم أنسجم مع أصدقائه الحشاشين. أما ربا فتربطني بها صلة قرابة بعيدة، كما أنها صديقة مقربة لأختي.

سألت بحذر، "شو صار يا جماعة؟"

رد فادي، "أنت بتعرفو لزاهر من أيام الشام. مو؟"

"زاهر يلي عرفني عليك؟ أيه؟"

"اعتقلوا اليوم. يا الله. بس تخيل شو ممكن يصير فيه. تخيل فادي بحلاوتو ولطافتو ورقتو...يا الله..."

كان فادي يرتجف.

"عدي، بتعرف شو يعني ولاد الكلب ياخدوا واحد متل زاهر."

تدخلت ربا، "انشالله بيطلع بسرعة. ما علي شي..."

"لا علي يا ربا. علي كتير يا ربا. عميشتغل مع المحاصرين بالغوطة. علي كل شي."

"صلّي عالنبي فادي. انشالله بيطلع بسرعة... أنا لسا ما فهمت شو صار جوا بالمطعم؟"

تجيب ربا بتردد، "الشباب كانو عميمزحوا انو زاهر...بتعرف، يمكن يتبسط جوا..."

يلتفت فادي إلي ويصرخ في وجهي، " طيب معقول كل هالكره. شو ساوينا نحنا؟... معقول يتمسخروا عزاهر وشو بدون يعملو فيه؟ ليش هيك العالم يا الله؟"

يلتفت إلى شخص لا مرئي خلفه ويصرخ فيه، "في أحقر من هيك؟ في أسفل من هيك؟ ليش هيك العالم يا الله؟"

أبحث عن كلمات أواسي بها فادي. أقف عاجزاً. يلتفت إلينا باحثاً عن تعاطف.

تهمس ربا، "والله الواحد لازم يهالفترة ما يدخل حالو بشي..."

"كرمال الله انتي التانية لا تنحيوني. لك حلّي عن سمانا أنت والمسيحيين والعلويين وأقلياتك الزبالة."

"فادي، ما بدي أعلق معك. أهدا..."

"ما بدي أهدا. روحي انقلعي من خلقتي."

ينفجر فادي شاتماً ربا والمسيحيين وكل شيء.

تتركنا ربا.

أبقى وحيداً مع فادي.

يجلس القرفصاء.

يعبث بعصا خشبية صغيرة وجدها على الأرض.

" اسماع، أنا مو كتير حاسس...بأنو..."

أبتسم مشجعاً.

"قصدي زاهر صديق قريب كتير. بتعرف صحبة قديمة. "

"آيه، آيه."

يقف فجأة، ويحك شعره.

يعود فادي ليتقفص الدور الذي لعبه طيلة حياته.

يصافحني بطريقة رسمية.

"انسى كل شي. منشوفك المرة الجاية بنزلتك علندن. سلام."

يغادر مسرعاً.

-٣٠-

كنت أتجول مع ربا في سوق "الكامدن تاون"، والذي يشبه الأسواق الشرقية بمحلاته الصغيرة المتراصة وحاراته الضيقة. في أحد محلات الجلد المستعمل، كنت أتسلى مع ربا بقياس معاطف الجلد القديمة.

جربت ربا عدة معاطف جلدية من مقاسات مختلفة، ثم اختارت معطفاً جلدياً أحمر طويلاً. بدت كمهرجة مثيرة في السيرك.

"والله لازم تاخدي عالشام. ناقصها الشام تهريج."

كانت ربا تفكر بزيارة دمشق لمدة أشهر، ثم حسمت أمرها أخيراً مع تفاقم مرض أمها. أتت إلى بريطانيا من خلال منحة "الشفينيغ" كي تحصل على رسالة الماجستير في الإعلام. أنهت الرسالة منذ شهر تقريباً، ولم تحسم خياراتها فيما ستفعله الآن. هل تعود إلى دمشق أم تطلب اللجوء وتستقر في بريطانيا؟

تكلّم نفسها، "مين بدو يلبس كل هالجواكيت؟ في بالة هون بتكفي كل البردانين بسوريا."

تخلع المعطف، وتجرّب آخر أسود ضيقاً، تخلعه وتبحث عن غيره.

"أستاذ عدي، إزا حكمنا هاد جيش الإسلام تبعك، رح يحجبوني مو؟"

"عالأغلب أيه."

وقفت ربا بتنورتها القصيرة وكنزتها الضيقة تتأمل نفسها بالمرآة.

"أيه السيد الرئيس ما رح يحجبني."

"أكيد ما رح يحجبك. الله يخليلك ياه، تعيشو بعزّو ربا خانوم."

"قالت ستي أنو المسلمين بس بدون يحجبونا. وقت حبيت محي الدين، هسترت رسمي المخلوقة. قالتلي هاد الكلب يلي عامل حاملو منفتح، بكرا أول ما تتجوزو بيصير بدو يحجبك"

خلعت جاكيت الجلد واستبدلته بآخر بني قصير.

نزحت جدة ريا من حي الحميدية المسيحي في حمص إلى حلب، ثم نزحت مرة أخرى من حلب إلى دمشق.

سألتها، "وينو محي الدين؟"

"شو بيعرفني، بالهفا."

تخلع المعطف ونغادر المحل.

"أنت كيف بيجيك قلب تشتغل مع هدول الحوش الإرهابيين؟ والله كنت مفكرتك أفهم من هيك."

"صرت مية مرة شارحلك يا فهيمة انو هدول بني آدمين، وهي العنصرية لازم تبطليها".

كنت أعامل ريا معاملة خاصة بسبب محبة أمي الكبيرة لها.

"ما بدي بطل شي. هنن بدون يحجبونا ويقتلونا، ونحنا رح نضل ورا السيد الرئيس للأخير...بتعرف انو ميشيل ومرتو وبناتو التلاتة انخطفوا عطريق حلب، وما طلعوا غير لدفعنالون مليونين ليرة."

ندخل محلاً متخصصاً في الشالات؛ تتفحصهم ريا بخبرة.

تأخذ أحد الشالات وتربطه حول عنقها.

"لابقلي؟"

"أيه. كتير."

تخلع الشال وتلبسه كحجاب يغطي شعرها.

"أخو لمحي الدين مختفي. خطفو بآخر الـ ٢٠١١، وما عاد بين. الأمن العسكري أخدوا من البيت"

التقيت بالأخ الأصغر مرة أو مرتين منذ سنوات؛ أذكره طفلاً مملاً وقحاً.

تتابع ريا، "أنا ما بتزكرو غير وهو ولد من شي سبع تمن سنين. كان

عمرو عشر سنين وقتها."

"الله يحميه. ما بيستاهل."

يسود بعض التوتر في المحل من حجاب ربا. ربما كان لكلامنا بالعربية أيضاً بعض التأثير.

تطلب البائعة من ربا أن تخلع الشال إن كانت لا تريد شراءه. تخلع ربا الشال ونتابع تجوالنا.

"عيلة أبي كلها مع الإرهابيين... فتوقع هالشي"

"حكيتي مع حدا؟"

"لأ، من وقت ما اتصلوا فيي من شي خمس سنين، وقلتلون ما بدي شوفكون، ما عاد في حكي بيناتنا"

توفي والد ربا عندما كانت صغيرة. كان الوالد مسلماً والأم مسيحية، وتزوجا "خطيفة". لم يترك الوالد شيئاً وراءه، وتخلت العائلة المسلمة عنهن، فعادت الأم ذليلة إلى حضن العائلة المسيحية مع طفلتين. عاشت في كنف الكنيسة، بمساعداتها وإحسانها.

"ستي عمتقلي ما أنزل. قال ما في شي بقى مستاهل."

تمرر يدها في شعرها الطويل، قبل أن تربطه كذنب الحصان.

ملصق للتبرع لأطفال سوريا في المحل المقابل. ملامح الطفلة في الملصق تشبه ملامح ربا.

مجموعة من الإنكليز يعلّقون على صورة الطفلة، "لا تبدو الطفلة عربية، جمالها غربي."

"عدي، بدي أسالك عشي بس يضل بيناتنا."

"بيضل بيناتنا. هاتي لشوف."

كنت لربا ابن العم الأكبر، أخو صديقتها المقربة، وأحد المعجبين الصامتين. لا أعرف أي هؤلاء أنا الآن.

"بتعرف العميد جورج جوز خالتي؟"

"أيه."

"خبرتني بنتو من شي أسبوعين أنو أخو لمحي الدين ميت. قتلو تحت التعذيب من أكتر من سنة."

لم تكن ربا تريد أن تنظر إلي. أخذت تعبث بالحلي الفضية المعروضة في المحل.

"الله يرحمو."

وضعت ربا خاتماً فضياً وقلبت يدها كي تراه. خلعته وهي تتمتم، "بنت خالتي حلفتني ما قول لحدا. ما بدون يقولو أنو عمنسرب أخبار المعارضة. بس حاسة لازم قول...عالأقل لأمو. حرام تضل عمتنستنى."

"أكيد لازم تدري أمو. متأكدة بنت خالتك؟"

"أيه. متاكدة... الجثة دفنوها أكيد"

"بدك أنا بخبر حدا من عيلتو. ما بجيب سيرتك. بقول وصلتني من طرف معارض، حدا طلع وحكا. شو رأيك؟"

جربت عدة خواتم على مهل.

"طيب، خير أنت أهلو."

أخذت ربا طوقاً فضياً مع صليب صغير.

قبلت الصليب بحرقة.

التفتت إلي وابتسمت بأسى.

"خلينا نسكر عالسيرة."

اشترت ربا الطوق والصليب.

مشت أمامي ساهمة.

"ابن جارتنا مات هو وعميخدم بدير الزور. وقت حاكيتها، بهدلتني. قال أنا بضل مسلمة... ولازم بظل تمثيل أني مسيحية. دقتلي أختها واعتذرت بعدين. هي القصة صارت معي وقت آنسة الديانة قالتلي بدك تضلي قاعدة بالصف لتحضري حصة الديانة الإسلامية، وما في تطلعي مع المسيحيين لأنك مو مسيحية عنجد."

تشعر ربا أنها تستطيع أن تخبرني بهذه القصص. كلانا ذاق مرارة العائلات المختلطة.

"الله يرحمو. الله يرحم الجميع."

"رح أشتري مي. بدك شي؟"

"لا، سلامتك."

تدخل ربا إلى البقالية الصغيرة.

ثلاثة شبان مغاربة يدخنون ما يبدو أنه سيجارة حشيش. أنسى نفسي وأنا أراقب كيف يتبادلون السيجارة. يقدمونها لي. أعتذر بابتسامة مرتبكة.

تفتح ربا عبوة الماء وتقدمها لي.

"بتعرف، أحياناً هيك بقول لو ما في إسلام ومسيحية وكل هالقصص كانت حياتنا أسهل. بعدين برجع بتزكر المسيح والعدرا وبندم عهيك تفكير."

تجولنا في السوق وكأن على رؤوسنا الطير، كما يقال. كنت أفكر فيما تعنيه هذه العبارة، سأبحث عنها على النت هذا المساء.

"عدي، ما بدي أرجع عالشام، وما بدي ضل هون. شو أعمل؟"

"ولا شي. انزلي هلق وبعدين شوفي الله شو بيسر. طالما فيزتك لسا فيها شهرين فيكي ترجعي."

نخرج من السوق إلى الشارع العام المزدحم.

قبل أن أودع ربا، تخلع الصليب وتقدمه لي.

"اشتريتلك الصليب ألك. وعدني تخلي معك. بالشنتة يلي بتضل حاملها، مو ضروري تلبسو."

آخذ الصليب وأضعه في الحقيبة.

"بدي برازق من الشام يا بنت، أحسن من الصليب وكل هالقصص"

تضحك ربا بطيبة.

"يا ريت فيني جيب برازق لكل العالم هون."

-٤-

مقطورتي في القطار العائد إلى نوريتش شبه خاوية.

على باب المقطورة ملصق التبرع لأطفال سوريا.

أحدق بالطفلة كما نحدق في مرآة.

غصة في القلب؛ لن أعود، ولم أغادر.

أفتح كتاب الصديق جولان حاجي وأقرأ.

"ستعود جانعاً كفكرة تخشى أن تموت.

وإذا فتحت أي باب،

لتطمئن أو تغادر،

فتحت الحيرة.

ستدنو المرآة وتعلو.

كعدوين قديمين

ستحدق عيناك في عينيك."

-١-

كانت حلا متحفزة للقاء أخيها محمد. بعد خمس سنوات من مغادرتها دمشق، هذا لقاؤها الأول مع أحد أفراد العائلة. كاد الرجل أن يبكي وهو يضمها. حدثها عن عمله الجديد في قطر، عن ابنته الصغيرة، عن استشهاد ابن عمهم في حلب، عن عائلة زوجته المتورطة في السياسة، عن ابن حماه الذي يعمل في المجلس الوطني. كان محمد يترثر بطريقة لم تعهدها فيه. تعرف أنه يتحاشى الكلام عن أبيها وأخيها الأكبر سعيد، ولكنها واثقة أنهما سيتكلمان عنهما.

"شو بدك تتعشى؟"

"فيش أند شيبس، أي محل عندو فيش أند شيبس."

"بدك تعملّي سايح؟ في بار قريب هون، أكلو طيب. عندك مشكلة نقعد ببار؟"

"لا. بس أنت ما رح تشربي، ما؟"

"مبلا، رح أشرب بيرة".

"لك تضربي أنت وهالعادة. يلا ماشي".

لم يكن محمد، أو أي فرد في العائلة، يشرب الكحول؛ حلا استثناء. كانت تشرب الكحول مع زوجها السابق وعائلته.

تنظر حلا إلى جسمها في مرآة المحل المقابل للبار. تتذكر ما قاله مارك البارحة، "أنت امرأة مكتملة الأنوثة. لا تدعيهم يسجنونك مرة أخرى."

تبتسم لصورتها في المرآة، وتدخل المطعم بخطى واثقة.

يأكل محمد بشهية. طيبة محمد أصيلة ومحببة. بعد أن ينهي وجبته، يقول لها بصوت جدي، "حلا، سعيد بدو يزور بريطانيا مع عيلتو، وحابين يشوفوكي".

لا تعرف حلا ماذا تقول، لم تكن تتوقع زيارة سعيد.

"ما بعرف محمد. والله ما بعرف.... أمتى بدو يجي؟"

يحاول محمد إقناعها بأن توافق على الاجتماع بسعيد، على الأقل لمرة واحدة فقط. لم ترفض حلا، تريد بعض الوقت لتفكر بالأمر. أرادت أن تستشير مارك.

"حلا، القصة صرلها خمس سنين..."

تقاطعه، "بعرف محمد. بلا هالسيرة ببوس أيدك".

يبتسم، "متل ما بدك حلوش".

"لك لا تناديلي حلوش، ولي عالغلاظة".

يأخذها محمد إلى المول، ويشتري لها أحذية وثياباً. كان يشعر بتأنيب ضمير، ولا يخفي ذلك.

قبل الوداع، يعرض عليها بعض المال. ترفض حلا.

"حلا، قبل ما تمشي. أنت مو ساكنة مع رفيقتك متل ما قلتي لماما"

لا ترد حلا.

"مو مشكلة. ما بدي أعرف أكتر. إزا بدك أي شي حاكيني، أنا جاهز. رح خبر أهلك انو زرتك بالبيت وأنو عايشة مع بنيتن"

"خبرون يلي بدك ياه."

"طيب طيب. بلا ما نفتح هالسيرة. ديري بالك، وإزا بيحبك خلي يتزوجك هاد يلي ساكنة معو"

"خلص محمد، ميشان الله بلا هالسير كلها"

"طيب. خلص، خلص. ديري بالك عحالك حلوش."

توذعه وتمشي متجهةً إلى محطة المترو. تفكر بسعيد. أخبرها محمد أن أوضاعه المادية أصبحت ممتازة. كان سعيد يعمل في التعهدات، وتوسعت أعماله خلال الثورة بشكل متسارع وغير متوقع. لم تكن حلا على وفاق مع سعيد منذ طفولتها، كان يلعب دور الأخ الأكبر بتسلط وذكورية. لم تكن حلا وحدها من اصطدم بسعيد، نهاد وندى، الأخوات

الأصغر، أيضاً لم يكن على وفاق معه.

يتبعها شابان، تتعرف على لهجتهما، أحدهما مصري والآخر لبناني. من الواضح أنهما لا يعتقدان أنها عربية. يتناقش الشابان في كيفية ممارسة الجنس معها. يرى المصري أن مؤخرتها صغيرة، وأنه سيدمرها بقضيبه الأسطوري. يرد اللبناني بأنها تبدو من أوروبا الشرقية، وهؤلاء يحبون الجنس من الخلف. ربما أدخلت في مؤخرتها ما هو أكبر من برج ايفل.

بعد فترة، ينفد صبر حلا. تلتفت إليهما، وتقول بصوت متوتر، "شو بدكون مني؟ أنا ما أزيت حدا بحياتي".

تكاد حلا تبكي. يخونها صوتها الذي أرادته قوياً معبراً، ولكن بدا كأنها تتوسل عطفهما. يعتذر الشابان بشدة.

تغمغم حلا، "بس أنا ما أزيت حدا بحياتي".

يؤكد الشابان أنهما لم يتوقعا أنها عربية. يعتذران مرة أخرى ويتركان حلا في حال سبيلها.

في المترو، لا تستطيع حلا أن تتوقف عن التفكير بسعيد، بطليقها، وبحياتها التعيسة طيلة السنوات الماضية. تجلس فتاة في مقتبل العمر في المقعد المقابل. صديقها يقبلها بشغف. تتدلل الفتاة، وتخبره بأنه ممنوع أن يقبلها لمدة خمس دقائق. يحتج الفتى بشدة. خمس دقائق دون تقبيلها يعني نهاية سعادته، كأنها الأبدية في الجحيم. تغير الفتاة رأيها بعد ثوان، يقبلها بعنف. تشعر حلا بظلم لا حدود له.

تدللت حلا مرة، "ما في تبوستي لحتى تنضف غرفة القعدة متل ما وعدتني".

"تعي عطيني بوسة وبلا غلاظة".

"طيب والغرفة إمتى رح تنضفها؟"

يتغير صوت عبد الحكيم، "عمقلك بلا غلاظة، تعي لهون لشوف".

أحست حلا بالخوف، ولكنها لم تعرف ما الذي يجب فعله. تقترب من عبد الحكيم مترددة.

"ليكني"، ثم تضيف بصوت فيه بعض الدلع، "شو بدك مني؟"

يسحبها عبد الحكيم ويجلسها في حضنه. يقبلها في عنقها، ثم يعري صدرها بسرعة. يكمل تعريتها بعنف، ويضعها على الأرض. يمارس الجنس معها دون أن يخلع ملابسه. كانت حلا أثناء ذلك تنظر إلى حذائه بجانب رأسها. أرادت فقط أن تبعد الحذاء، لم تستطع. انهمك عبد الحكيم سريعاً في العملية وخافت أن تقاطعه. بقي الحذاء ملاصقاً لرأسها طيلة الوقت. كان هذا في اليوم الثالث من شهر العسل في بيت صديقه الباريسي.

تنظر حلا إلى الفتاة بحسد.

سألتها الفتاة "هل أنت بخير؟"

ردت حلا "نعم"، ثم بصوت واهن بالعربية، "أنا بعمري ما أزيت حدا".

يغادر الفتى والفتاة المترو. تبقى حلا شبه وحيدة في المقطورة. تستعجل الوقت. تريد فقط أن ترتمي بحضن مارك. لا تريد الكلام، فقط أن يكون موجوداً، يمسد شعرها، ويستمعان لبيلي هوليداي.

كان مارك قلقاً. لم يفهم طبيعة علاقة حلا مع عائلتها، أو بالمجمل علاقة العرب بالعائلة. استفهم من حلا عدة مرات عن طبيعة خلافها مع سعيد، كانت إجاباتها دائماً غير واضحة ومراوغة. ربما حلا نفسها لا تعرف الإجابة. تتوتر حلا بعد كل مرة تكلم فيها أمها أو محمد. يحاول مارك أن يساعد، ولكنه لا يعرف كيف. أصبح الأمر عائقاً أمام فهمه لها. كان لمارك علاقات مع نساء عربيات سابقاً، إلا أنها المرة الأولى التي يحب إحداهن. شيء ما في حلا جعله مهووساً بجسدها، بضحكتها، بصمتها. كانت حلا تعمل مدرسة للغة العربية في جامعة قريبة. لم تكن لها أحلام كبيرة. تفكر بترجمة بعض الكتب، وتريد السفر إلى أمريكا اللاتينية واليابان. ولكن ما تبحث عنه حلا دائماً هو الهدوء، هدوء لم يتمكن مارك من فهمه. هدوء شامل، نوع من الصمت الذي يحجب كل ضجيج العالم، كالصمت الذي يضج بأنوثتها حين تتأمل لندن من نافذتها. لا يعرف إن كانت حلا تحبه أم لا. عاش مارك في سوريا ولبنان ومصر والمغرب لفترات متقطعة منذ بلوغه العشرين. الآن يسعى للحصول على وظيفة دائمة في لندن. لم يعد يافعاً، أكمل الأربعين، ويفكر بالاستقرار. حلا أيضاً ليست يافعة، فقد أتمت الرابعة والثلاثين الأسبوع الماضي. تعيش معه بسعادة، ولكنها لا تريد حتى الكلام عن الاستقرار.

وصلت حلا إلى البيت وهي أهدأ مما توقعت. صبت لنفسها بعض النبيذ

وجلست مبتسمة. كان مارك أكثر توتراً منها. سألها مباشرة حين دخلت البيت، "ماذا حصل؟ هل كان اللقاء جيداً؟"

ردت حلا بالعربية، "تركني شوي لأقعد وأشرب شي."

اختار مارك بيلي هوليداي، المغنية المفضلة لحلا. جهز الموسيقى وبعض المقبلات، وجلس صامتاً.

ابتدأت حلا بمزحة غير موفقة، "دائماً بتقلي أنو لازم أحكي عن عيلتي، أنو الحكي بيريح. بس أنت كمان ما حكيتلي عن طليقتك. موع أساس كنتوا تحبو بعض".

كانت حلا تهاجم مارك كلما شعرت بضعفها.

أجاب مارك باسماً، "أجل كنت أحبها. ما زلت أحبها"

تضحك حلا بصخب، "أنت ما بتحب حدا غيري".

تقترب منه وتقبله بشغف.

"حلا، هل أنت بخير؟"

-٢-

في ذلك اليوم اجتمعت العائلة على العشاء: سعيد وزوجته، محمد وزوجته، الأختان ندى ونهاد، والأب والأم. الجميع يعرف بأن حلا تريد الطلاق. الأب وسعيد كانوا أكثر من غاضبين. في النهاية، حلا هي من اختارت عبد الحكيم، بالرغم من تحفظاتهما. كان عبد الحيكم يكبر حلا بخمس سنوات، ويعيش في بريطانيا منذ مراهقته. اعتراض العائلة كان على أسلوب عبد الحكيم المتعالي في معاملة كل من حوله، بالإضافة إلى ما يُحكى عن تورط والده في تجارة السلاح والآثار مع رفعت الأسد في الثمانينيات. في التسعينيات، تم ترتيب عودة بعض مؤيدي رفعت داخل البيت العلوي بهدوء وروية، شرط أن يعلنوا ولاءهم الكامل لحافظ الأسد. كان العقيد أبو محمود، والد عبد الحكيم، أحد العائدين. بقيت عائلته في لندن، ولكنهم يزورون أرض الوطن بشكل دوري.

لم يكن أبو سعيد يتكلم في السياسة، أما سعيد فكان مقرباً من السلطات، فشركة التعهدات التي يديرها ويشترك فيها برأسمال ضخم تضم وزير الري السابق وابن محافظ دير الزور الأسبق ورئيس فرع مخابرات

أسبق في حلب. شعر أبو سعيد وسعيد بأن زواج حلا من ابن أحد مؤيدي رفعت ليس بالأمر الجيد، بالإضافة إلى عدم رغبتهم بمصاهرة علوي. للأب تحفظات على النظام؛ اثنان من أبناء عمومته اختفوا في أحداث الثمانينيات لاشتباه السلطات بتعاطفهم مع الإخوان. خرج أحدهما من السجن في بداية التسعينات، أما الثاني فقتل تحت التعذيب.

حلا من جهتها لم تكن تفهم في السياسة، وكانت ترى أن كل هذا الكلام عن رفعت والإخوان ينتمي إلى ماض سحيق لا يستحق الوقوف عنده. لم تعرف حلا ما هو الحب، ولم تقع في حب عبد الحكيم. كانت في الخامسة والعشرين حين التقت به. لم تكن تبحث عن حب، بل عن رجل يمتلك مواصفات الرجل الحقيقي، وكان عبد الحكيم ذلك الرجل: غامض، مغرور، غني، يمتلك شبكة علاقات مع فنانين ومسؤولين ورجال أعمال، يكبرها قليلاً في العمر، ويجعلها تتمنى أن يأخذها في كل لحظة. لم تكن حلا تفكر في هذه المواصفات دائماً بشكل واعٍ، ولكنها عدتها لصديقة سألتها لم تريد الزواج من عبد الحكيم.

لا يبدو أيضاً أن عبد الحكيم أحب حلا، ولكنه كان يشتهيها بشدة. كان جسدها مثيراً، وتطابق المواصفات المطلوبة: فتاة مهذبة من سوريا، عذراء على الأغلب، هادئة و"بنت عيلة "، متعلمة وغير متطلبة. بالضبط ما يحتاجه عبد الحكيم في هذه المرحلة. كانت أعماله تتوسع بهدوء. له أسهم في مطعم في "أدجاور رود" في لندن؛ وسوبر ماركت في دبي؛ بيتان في دمشق وبيتان في دبي وخمسة في اللاذقية يقوم بتأجيرهم؛ فرن معجنات كبير في طرطوس؛ وأسهم في فنادق في دمشق وحلب. كل ما يحتاجه الآن زوجة جميلة ومطيعة.

تزوج حلا وعبد الحكيم بعد أربعة أشهر من الخطبة، وانتقلا إلى بريطانيا مباشرة بعد شهر العسل.

حين أخبرت حلا أمها بأنها تفكر بأن تترك عبد الحكيم، لم تفهم الأم ما الذي تريده حلا. ناقشتها طويلاً. أخبرت الأم أن له صاحبة في لندن، وصاحبة في اللاذقية. لم تقتنع الأم بهذه الأسباب. قالت لابنتها أن أباها كان على علاقات متعددة طيلة الأربعين سنة الماضية، وأن هذا التفصيل الصغير لا يجوز أن يؤثر على الحياة العائلية. احتجت حلا بأنها لا تحب الرجل وأنها أخطأت حين تزوجته بسرعة. فزعت الأم لمثل هذا الكلام، وطلبت من البنت ألا تردده أمام العائلة، أو الغرباء. لا يوجد شيء اسمه

خطأ في الزواج، وعلينا تجنب فضيحة الطلاق ما أمكن. لم تقتنع حلا. تركتها الأم وحيدة لتواجه الأب وسعيد.

في ذلك اليوم الخريفي كانت الأسرة تشرب الشاي بعد العشاء. افتتحت حلا الحديث مباشرةً، "بابا، أنا وعبد الحكيم رح نتطلق".

تجاهلها الأب. منذ سفرها لم تعد حلا تشعر بعاطفة أبيها. كان الأب واضحاً في رفضه للطلاق. قبل يومين أخبرها أنه سيتصل بعبد الحكيم ليرتب مصالحة. طلبت منه ألا يفعل، وأن يعطيها بعض الوقت كي تكلم الرجل بنفسها.

"قلتلك هاد الحديث خلص. أنا رح حاكي عبد الحكيم ميشان الصلحة"

تشجعت حلا، وبصوت متردد قالت، "بس بابا أنا وياه اتفقنا عالطلاق"

- تدخل سعيد، "شي حلو، وأنتي مالك عيلة وأب وأخ كبير يحكي باسمك. عميقلك أبوكي خلص نحنا منحل القصة."

"سعيد، من بعد اذنك، أنا بدي الكل يسمعني. ما بدي حدا هلق يسكتني ويقلي شو أعمل"

"شو قلة هالأدب ولي؟ هاتي لشوف. خلينا نسمع وننطرب ست حلا"

تنتظر حلا دفاعاً عنها من أمها أو أبيها. عادةً يتدخل أحدهما عندما يهينها سعيد. يصمت الجميع. تشعر حلا بالخذلان.

"بابا، أنا وعبد الحكيم اتفقنا عالطلاق"

"لك فهمنا. والله فهمنا. وأنا عمقلك ما في طلاق هلق. استني لأحكي معو"

"بس بابا..."

- "بلا بس حلا. موضوع الطلاق سكرناه. في شي

موضوع تاني بتحبي تحكي فيه."

تكاد حلا تبكي. تنظر إلى محمد الذي يتشاغل باللعب بعلبة السجائر.

"بابا. أنا وعبد الحكيم وقعنا وراق الطلاق قبل ما نجي".

ينظر الجميع إلى حلا بدهشة.

يطول الصمت.

تبحث عيون حلا عن تعاطف ما عند محمد أو الأم.

تبدأ الأم بالبكاء.

يقطع الأب هذا الصمت.

"مبروك".

تقول زوجة سعيد، "الحمد لله عكل شي. حلا كان لازم تخبري سعيد قبل ما تطلقي."

تلتفت حلا إليها، وبعصبية تجيب، "ما كان لازم خبر غير أبي"

يرد الأب، "وليش ما خبرتيني لكن؟"

تتردد حلا، "لأني خفت ما توافق."

يحاول محمد تخفيف التوتر، "المهم هلق أنت بخير وبصحتك حلوش. الله يكتب يلي فيه الخير."

تبدأ نهاد بالبكاء، تجاوباً مع بكاء الأم.

تغمغم الأم من خلال الدموع، "طيب حلا، غرفتك موجودة. جبتي غراضك وتيابك؟"

ترد حلا بصوت واهن جداً، "لا، ما جبت شي."

ترد الأم، "ليش لك بنتي؟ هلق بدك ترجعي تسافري تجيبي غراضك بعد الطلاق".

يضحك سعيد، "بلكي حابة ترجعلو؟ القصة تسلاية لأنو. هي حبتو، هي جابتنلا ياه لهون، هي طلقتو، وهلق بدها تروح تقعد عندو كم يوم يمكن بعد ما تطلقو. لا تكوني بدك تعيشي معو بالحرام؟"

يرد الأب ضجراً، "إزا سمحت يا سعيد. بلا هالحكي بوجودي."

"حاضر".

يسأل الأب، "يعني بدك تسافري مرة تانية؟"

تهمس حلا، "أيه. طيارتي بعد يومين"

يقول سعيد بصوت عالٍ، "شو حبيبتي؟ ما عمنسمعك؟"

تكرر حلا، "طيارتي بعد يومين."

يتدخل محمد، "الله يوفقو ويوفقك. بيتك مفتوح يا حلا."

يرد سعيد بسخرية، "ومن وين بدها تصرف عحالها المطلقة هي؟ شو هالشطارة أنت بس بتطيطبلا شو ما قالت؟"

ترد حلا، "إزا هاد يلي آكل همو، ما في مشكلة. مارح آخد ليرة سوري منك أستاذ سعيد"

تبدو علائم التعب على الأب. كان قلبه متعباً. يتدخل بضجر واضح، "بلا قلة أدب يا حلا."

لا ترد حلا. تنظر إلى الأرض وهي تقضم أظافرها.

يكرر الأب، "حلا، اعتذري من أخوكي."

تعتذر حلا، "آسفة سعيد، مو قصدي قلل أدب."

يرد سعيد بزهو، "مو مشكلة. المهم منأمنك نحنا هون. بتضلو أنتو مسؤوليتي."

تشعر حلا أنها تختنق.

"الله يخليك يا سعيد. ما في داعي."

"لك شو صرلك؟ بدك تضلي متحيونة وميبسة راس؟"

يقف سعيد، "يلا يا نجوى. خلينا نمشي بلا هزة البدن مع هالبنت هي"

تقف الأم ومحمد ونهاد وندى. يبقى الأب جالساً، وكذلك حلا.

يتجه سعيد نحو الأب. يقبل يده ويطلب رضاه.

يتمتم الأب، "الله يرضى عليك".

تحاول نهاد والأم تهدئة سعيد.

تقف حلا وتتجه إلى أبيها. لا يلتفت الأب. تقبله من رأسه. تغادر إلى المطبخ.

تساعد زوجة سعيد زوجها في ارتداء معطفه. يقول سعيد بصوت عالٍ، "الحق عليي أنا يلي بس بدي أمنكون. يعني هي المطلقة مين بدو يشيلها. ما في غير أني أصرف عليها وأمنلها عريس تاني. بتاكل من لحم كتافي وبعدين بتتنمرد"

تعود حلا من المطبخ، وتتوجه بكلامها إلى سعيد مباشرةً، مرتجفةً تحاول أن تضبط أعصابها، "يا سعيد ما رح آخد قرش منك بحياتي. الحمد لله أبي صرف عليي أنا وصغيرة. ومن اليوم ورايح أنا رح أصرف عحالي. شغلي منيح وبيكفيني عيش بدون منية حدا."

"أي شغل يا وقحة؟ ببريطانيا عمتدزمي عربي. هون شو بدك تتقبري تعملي؟"

"سعيد... أنا رح ضل ببريطانيا."

كان لهذا وقع الصدمة. يتكلم الجميع في الوقت

نفسه، تحاول حلا أن تبدأ الحديث مع أمها. فجأة يعلو صوت سعيد.

"ولك عمبحكي معك ردي. كيف بدك تعيش ببريطانيا بعد طلاقك. ما بيكفي البهدلة والفضيحة، شو بدك تشرشحي العيلة كلها يا حيوانة؟ قولاً واحداً بدك ترجعي تنضبي ببيت أهلك، وحكي فاضي وأكل خرا ما بدي أسمع أيداً منوب"

يحاول الجميع تهدئة سعيد.

"العمى. شو بقول للعالم يلي عمبشتغل معها أنا. شو بدنا نقول للجمعية؟ للعيلة؟ للشركا؟"

ترد حلا بصوت واثق، "قلون حلا عمبتعمتد عحالها. ما بدها مصاري..."

يقاطعها صارخاً "لك يحرق أخت المصاري. عمنحكي عشرفنا نحنا. قال مصاري قال..."

تتابع حلا، "وعايشة متهنية عمتشتغل وما حدا ألو عليها شي. لا أنت ولا عبد الحكيم. حلو عن ربي بقا".

يقترب سعيد منها، "مين يحل عن ربك يا حيوانة؟"

تصرخ، "أنت بالزات حل عن ربي. لسا عالرايحة والجاية بتزلنا بالمصاري يلي عمتحطهون بالبيت..."

يمسك سعيد يد حلا ويهزها بشدة، "مين يحل عن ربك يا وقحة؟ ولك اخرسي أحسن ما ربيكي من جديد"

تصرخ حلا بهيستريا، "نزل أيدك يا حيوان".

يفقد سعيد أعصابه تماماً. يبدأ بضربها على وجهها

بقبضته، صارخاً بأعلى صوته، "والله لربيكي من أول وجديد"

لم يتدخل أحد. حاولوا من بعيد تهدئته.

هددهم، "قسماً بالله يلي بيقرب لأمعسو معها."

تراجعوا فوراً.

كان الدم ينفر من فم وأنف حلا، ومن عينها.

ارتمت في الزاوية كدمية مكسورة.

رفسها عدة مرات، ثم انحنى صافعاً إياها بعنف.

استسلمت حلا تماماً.

"خلص، خلص يا الله...والله ما عاد عيدا... والله ما عاد عيدا...والله ما عاد عيدا."

غادرت حلا دمشق بعد يومين.

-٣-

لم تخبر حلا أحداً عن حادثة ضربها. أرادت البوح بقصص كثيرة لمارك، ولكنها لم تستطع. فيما هي مستلقية على الديوان، تستمع إلى بيلي هولياداي، دهمتها ذكرى منسية من طفولتها. كانت هذه الذكرى هي ما باحت لمارك به.

في الصيف الحار، أمها في عنفوان شبابها، تضحك بصخب مع أبناء عمومتها في بيت جدتها. كان جدها لأمها غنياً، وبيته، بالنسبة للطفلة حلا، أكبر البيوت على الإطلاق. تلعب حلا مع الأطفال في البيت "طميمة". تركض إلى المطبخ، تفتح إحدى درفات باب النملية، وتختبئ فيها. لا تستطيع إغلاق الباب من الداخل. تدخل خالتها وأمها وجدتها المطبخ ليحضروا المزيد من القهوة. تراها جدتها من الباب الذي لم يغلق جيداً. تقترب منها، وتغلق الباب. تسمع صوت بنت عمتها صارخاً، "وينها حلا؟ وينها حلا؟"

تقول الأم، "والله ما بعرف. دوري عليها بغرفة ستك."

تفتح الجدة الباب، ترسل لها قبلة، ثم تغلقه، وتتابع النميمة مع بناتها.

يردد صوت بيلي هوليداي:

"في إحدى هذه الصباحات ستبدأ بالغناء

ستنفض ريشك وتبدأ بالطيران

ولكن إلى أن يأتي ذاك الصباح

لا شيء يستطيع أذيتك

ووالداك يعتنيان بك."

توفيت الجدة قبل سنتين.

لم تحضر حلا الجنازة.

أحياناً، ترى حلا جدتها في عجائز لندن.

تبكي حلا جدتها بدمع حار، سخي، ثمل.

يتردد صوت بيلي هوليداي في مطبخ جدتها.

تغني الجدة لحلا الصغيرة قبل النوم.

تعود حلا طفلة صغيرة تغفو في حضن المغنية الشهيرة.

جناحان مرنيان يغطيان الطفلة.

تطير بيلي هوليداي بحلا بعيداً، بعيداً، إلى عالم لا أذى يطالها فيه، في حضن جدتها الدافئ.

-١-

بالقرب من مركز انطلاق الباصات، عشرات السوريين يتواجدون بشكل دائم. لا تهدأ الحركة على مدار اليوم. تبدو ساحة "تقسيم" للجالس هنا كأنها مركز الكون. أنصت إلى ثلاثة مراهقين جالسين خلفي يناقشون مضار العادة السرية. يصر أحدهم أن كثرتها تسبب العمى. يقول آخر إنه يمارسها مرتين في اليوم؛ لو كانت العادة السرية تسبب العمى، لما استطاع التمييز بين أصدقائه وبين الممثلات الإباحيات. يؤكد الثالث أن العادة السرية تسبب ضعف النظر، وهذا يفسر ضعف نظر عمه أبي سعيد، فزوجته مارد حقيقي، وغالباً لا يستطيع المسكين ممارسة الجنس معها. لهجتهم حلبية. يغادر المراهقون الساحة ضاحكين.

كالعادة، تأخر حازم ورامي أكثر من ربع ساعة. ألمحهم من بعيد يبحثون عني. أتجه إليهم بخفة.

كانا يتكلّمان عن سفر إياد إلى فرنسا. لم أتذكر إياد. أصرّا أنه كان من الدائرة الضيقة لأصدقائنا. بعد نقاش مستفيض لأفراد الدائرة، توصلنا إلى أنه ليس منها، ولكنه كان على معرفة قديمة برامي. كنا ثلاثتنا نحاول أن نقلع عن التدخين. أما إياد، الصديق المقرب، فلم يكن مدخناً يوماً، وكان يدفع الشباب إلى ممارسة المزيد من التمرينات الرياضية.

يسألني حازم، "أنت بطلت ولا لسا؟"

يرد رامي، "هالبغل بعمرو ما رح يبطل."

"بس أنا تقريباً مبطل. عمدخن سيجارتين ثلاثة بالأسبوع. شو ما عاد تعرفوني أنت وياه؟"

كان هذا ما أخشاه، أن يعتادوا غيابي الطويل، أن أتحوّل إلى مغترب بالنسبة لهم. أسأل بلهفة، "هات لشوف أنت وياه. احكولنا إمتى طلّق طارق وليش."

يتردد رامي بالإجابة، أما حازم فيسرد قصة غير مقنعة عن خلافات متراكمة.

يتغير الناس، تقول جيني. "خمس سنوات ليست بالفترة القصيرة".

يصر رامي على دفع الفاتورة في المقهى. أمازحهم بأنني لن أدفع طيلة فترة إقامتي في إسطنبول. يبتسمان بأدب ويرددان بعض الكلمات المتحفظة حول كوني ضيفهم في المدينة.

يتغير الناس، تقول أمي. "أنت تغيرت كتير بالخمس سنين الماضية". تنتقدني أمي بسبب نفاد صبري مع زوج أختي وأولادها. كنت حليماً قبل سفري، أما الآن فلا أحتمل حماقات الرجل ومزحاته الذكورية والعنصرية.

يغادرنا رامي مبكراً. كنت أريد التعليق على حياة المتزوجين، ولكنني فضلت الصمت بعد هذه البداية غير المشجعة.

فقد حازم الكثير من شعره، وابيض ما تبقى. كانت نظرته الصافية الثابت الوحيد، منذ التقيته قبل ثماني عشرة سنة في المدرسة الإعدادية. تجولنا بصمت لساعة أو نحو الساعة. كان مهتماً بالعمارة، وبالزهور. يعلّق على ما يراه بين حين وآخر، دون أن ينتظر جواباً. مررنا بعشرات المتسولين السوريين، مقاه ذكورية، نساء محجبات، باعة متجولين، وانتهينا في بار عصري.

كان حازم يشعر بأنه ثرك وحيداً في دمشق. أخبرني أنني يجب ألا أطلب اللجوء في بريطانيا. لا معنى للحياة في الغرب، وعلى جيني أن تتفهم ذلك. علي أن أعود إلى تركيا، لبنان، أو الشمال السوري بعد تسليم رسالة الدكتوراه. لم أرتح للهجته الأبوية. دائماً يستخدم مثل هذه اللهجة حين ينصح أحدنا. أخبرته بأنني لا أحب لهجته.

"أنت كتير تغيرت. شو صرلك ببريطانيا يا حيوان؟ لسا بتتحسس عكل كلمة وكل مزحة."

"بالله؟ حاسسكون أنتو متحيونين وما بتلقو مزح."

"غريب. قولتلك كلنا تغيرنا؟"

الناس تتغير، يقول أبو محمود. "بكرة بس تنزل وتشوف رفقاتك بتفهم. خلص، لازم تقرر يا أما بتعيش حياتك هون ببريطانيا يا أما بتنزل لتحت. ما فيك تضل بين بين." هاجر أبو محمود إلى بريطانيا منذ خمسة وثلاثين

عاماً. لم يندم يوماً على ذلك، ولكنه أحياناً يشعر أنه غريب في وطنه الجديد.

مساءَ التقيت بفراس، الصديق الأقرب والأكثر تفهماً. أخبرته بخيبتي من لقاء حازم ورامي. شرح لي فراس أن حازم ورامي قد اختلفا على عدة أمور، وأن صداقتهما شابها الكثير من الخلافات. ربما كان التوتر اليوم راجعاً لخلافهما وليس لغيابي الطويل. لم أقتنع. تبعاً لفراس، لم يرتح حازم لأسلوب رامي في الحديث عن سجنه لأشهر في دمشق، كما لم يرتح لعمل رامي في الائتلاف. كان حازم يشعر بالمرارة لسفر الأصدقاء واحداً تلو الآخر، دون أسباب مقنعة برأيه، وأولهم رامي. أما رامي فقد شعر بأن لهجة حازم الأبوية لم تعد تُحتمل، وأنه لا يتفهم الظروف المختلفة التي تدفع البعض للرحيل، وللعمل في وظائف مختلفة لتأمين معيشتهم. أنهى فراس شرحه بالقول إنه يعتقد أن كل ما سبق كلام فارغ. كل ما في الأمر أن زوجة رامي تكره حازم.

حازم نصح رامي، قبيل زواجه، بأنه يجب أن يفكر في أمر هذا الزواج ملياً. يبدو أن رامي قد أخبر زوجته المستقبلية بنصيحة حازم. لم تغفر الزوجة للصديق هذه النصيحة.

غادر حازم وفراس إلى بيروت بعد يومين. عاد حازم إلى دمشق، وبقي فراس في ملجئه اللبناني.

-٢-

"تبدو مختلفاً مع أصدقائك السوريين. شيء ما يتغير حين تلتقيهم."

كانت جيني تدخن في السرير.

لم تنتظر جواباً.

"أتساءل أحياناً إن كنت أعرفك. ربما سيبقى جانب منك خفياً إلى الأبد."

كنت أقف عند النافذة، أراقب السكارى.

امرأة بكامل أناقتها تقيء على الناصية.

"حتى صوتك يتغير حين تتكلم بالعربية. غريب؟"

كانت جيني ثملة قليلاً.

"أتساءل إن كنت تحبني فعلاً. أحياناً أفكر أنك لا تريد إلا العودة، ولكنك لا تستطيع. لذلك تعيش حياتك على الهامش. أنا أيضاً على الهامش، وأصدقائك الجدد على الهامش؛ كأنك تؤجل الحياة الحقة. إلى متى؟"

تستلقي على ظهرها، وتدع شعرها الطويل ينساب من طرف السرير.

"هل تحبني حقاً؟"

أجيب بسرعة، "أجل".

ثلاثة رجال يحاولون مساعدة المرأة. تصرخ بهم بغضب.

"ربما مشكلتك مع النساء العربيات. قلت إنهن لا يعرفن كيف يمارسن الجنس. يستلقين كجذع شجرة ميت. ألم تقل هذا؟"

تجلس على حافة السرير، نظرتها حزينة كطفل لاجئ.

"هل أتحول أنا أيضاً إلى شخص آخر حين أكون في بيئة غريبة؟"

يضحك الرجال على المرأة. يداعب أحدهم مؤخرتها. تبدأ بالبكاء، يتركونها مسرعين.

"هل ستعود معي إلى لندن؟ أم أنك تريد العودة إلى بيروت، قطر، عنتاب؟ ما الذي تريده؟"

ألتفت إليها.

"لا تجب الآن."

حوالي العشرين شخصاً بملابس تنكرية يظهرون في الشارع.

"لم أفهم أصدقاءك. كانوا مهذبين معي، ولكنهم جميعاً غير مريحين. ما الذي حدث؟"

"الحرب، ربما؟"

"لا، لا. ليست الحرب، ليست الحرب..."

يحمل المتنكرون الملكة ويطوفون بها هاتفين ضاحكين.

"ما الأمر إذن؟"، أسأل دون رغبة بمعرفة الجواب.

"كأنهم أصدقاء من المدرسة الثانوية، يحاولون أن يلتقوا مرة أخرى. هذه الأمور لا تنجح..."

يتحلّق المتنكرون حول الملكة، فيما هي تقبل الشيطان.

"ربما. يتغير الناس يا جيني. يتغير الناس..."

تتنهد كمن يرتاب في كل الأشياء.

"جيني، هل تريدين أن نتزوج ونستقر في لندن؟"

يرتفع الشيطان على الأكتاف.

"أجل. ولكنني لا أحب لندن. هل نستطيع الذهاب إلى بلد آخر؟"

تعلو ضحكات المتنكرين.

يحيطون بالمرأة الباكية.

"أجل. نحتاج جواز سفر، وفيزا، فقط."

تبدأ المرأة بالضحك.

"لا، نحتاج أن نعرف ما الذي نريده."

أضحك.

"صحيح. هذا كل ما نحتاجه يا شقراني."

"تعال هنا."

تختفي المرأة مع المتنكرين.

يقفز الشارع تقريباً.

لا يبقى إلا القيء يلمع في ضوء القمر.

-٣-

"سليم أخ النا كلنا، هو رح يدير بالو عليك طول الوقت بحلب."

كان رامي يعبث بحقيبتي. أخرج علبة دخان ووضعها في جيبه.

"لساتك عمتكزب عمرتك وتقلها مبطل؟"

"أيه. وأنت مو بطلت ألف مرة؟"

"أنا مبطل بس ببريطانيا. هون مع السوريين والتراك مستحيل

بظل."

"يعني اشتريت الدخان بعد ما سافرت جيني يا حقير؟"

"شو بدك ياني أسمع موشح مضار الدخان طول الوقت؟"

أنهض من السرير وأتوجه إلى الحمام.

أعود لأجد رامي يدخن على الشرفة مع فنجاني قهوة أحضرهما عامل الفندق.

"شو هالإطلالة التافهة."

"لا تنق، مو جيني كان بدها شي رخيص باسطنبول؟"

آخذ من رامي ألفي دولار كذين مفتوح، وأرقام هواتف أصدقائه ومعارفه في حلب وإدلب. كنت أعتمد على رامي كثيراً فيما يتعلّق بزيارتي الاستطلاعية للشمال السوري المحرر.

"حكالك حازم أو فراس شي عن خناقتي مع حازم؟"

"أيه، يعني."

أتردد في السؤال عما يراه هو.

"حكولك انو طارق ما عميحكي مع حدا غيري؟"

"لأ. شو صار ليش؟"

"يا سيدي طارق بعد ما طلّق ما عاد بدو يشوف مرتو، ومتل ما بتعرف هي بنت عم حازم. المهم، حازم ما عاد حاكى طارق أبداً. وهيك بقى..."

"وانت شو ألك علاقة بطارق ومرتو؟"

"ولا شي، بس حازم ما ألو حق. من وقتها خففت شوفتو، وصرت شوف طارق أكتر."

أعود إلى الغرفة لأرتب أغراضي. يأتيني صوته مرتبكاً.

"مرتي كانت حامل، وسقطت الولد. حازم دقلي مرة وحدة. توقعت يكون أقرب. فراس كان يدق كل يوم يطمن..."

"وليش ما خبرتوني؟"

"ما بعرف. ما خبرنا حدا تقريباً. بس أربعة خمسة يلي بيطلّو

عاسطنبول كل فترة."

أعود إلى الشرفة.

"والحل؟ نصالحكون ولانترك القصة؟"

"تروك القصة. بكرة القصص بترجع لحالها بتزبط انشالله"

صمتنا لدقائق. كانت أصبعه تدور حول الحرف الخارجي لفنجان القهوة.

"بتعرف، ما في شي رح يرجع يزبط. تركنا البلد ومشي الحال... ما عمقول يلي ساويناه غلط، بس ما في شي مبين من اليوم ورايح. ولا شي. فهمت عليي؟"

"كمان أنت حاسس أنو العالم كلها تغيرت؟"

"البلد كلها تغيرت. يعني بعرف كان لازم نقول لأ. بس والله يلي صار فينا كتير.."

أشعلَ سيجارة، وصمتَ متأملاً الشارع الهادئ.

يجلس رجل على كرسي خشبي قبالة البقالية. على الطرف الآخر، محل كوافير نسائي، تخرج منه نساءٌ مثيرات، فيما الرجل بشاربه العريض يتنهد بحرقة.

"عمتحكي مع عيلة عمر؟"

"لا والله. قليل كتير. أول فترة كنت بحاكيون مرتين بالأسبوع. بعدين انشغلت. وأنت؟"

"نفس الشي، نفس الشي يا رامي"

يركض طفل إلى البقالية. يتثاقل الرجل الجالس، ثم ينهض متمتماً بعض العبارات. ثلاث نساء بتنانير قصيرة يخرجن من محل الكوافير. يلمعن كالنساء في دعايات التلفاز. يصورن أنفسهن بالهاتف النقال. تنظر إحداهن إلينا، وتلوح بيدها. يلوح رامي لها. يغادرن ضاحكات بصوت عال.

"عدي، لا تاكل هم مين تغير ومين لأ. ما في شي رح يضل متل ما هو. المهم تعمل شي من يلي بدك تعملو."

"هيك رأيك؟"

يخرج الطفل حاملاً المشتريات.

يعود الرجل إلى كرسيه مراقباً محل الكوافير.

"شوف إزا بدك تقدم اللجوء قدم. عيش حياتك وتزوج وجيب ولاد. وخليك عمطلطل كل فترة. شو بدك تعمل يعني؟"

تخرج امرأة من محل الكوافير وتتجه مباشرةً إلى البقالية.

يستقبلها الرجل بابتسامة عريضة.

تغادر بعد دقائق حاملة مشترياتها.

يتابعها بنظراته الشهوانية واقفاً محتاراً.

يعود إلى جلسته الكسلى.

شبح عمر يجلس على الكرسي الفارغ بيننا.

أكاد أسمعه يتذمر من دخان السجائر.

نصمت ثلاثتنا متأملين الحياة اليومية في الشارع الهادئ.

إلى راتب شعبو

-١-

تستمتع فيونا لما ترويه سمر على لسان خالتها عن ضرب جارتها لخادمتها الإثيوبية. تتساءل سمر كيف يمكن لامرأة متثقفة حاصلة على شهادة ماجستير في علم النفس، وتتكلم ثلاث لغات، وتعمل في منظمات حقوق المرأة وحماية التراث أن تضرب خادمتها. رجل في خمسينياته، يجلس بين زوجته وأطفاله الأربعة، يغمز فيونا من طاولة مجاورة. تراقب فيونا المتسولين السوريين خارج المقهى. طفلة صغيرة متسولة تلعب مع طفلين من الأغنياء فيما الأم منشغلة بالكلام على الهاتف. رجل ضخم ينهر الطفلة بقسوة. كانت سمر تراقب المشهد أيضاً. تعلق فجأة أن الرجل من معارفها، وأنه سوري وليس لبناني.

تعود سمر إلى قصة خالتها والجارة. الأسبوع الماضي سخرت الجارة من اللهجة السورية، ثم تذكرت أن الخالة سورية. اعتذرت مرددة أنها لا تشبه اللاجئين. تشرح لها خالتها أن الجارة من أقارب زوجها اللبناني، الذي تعيش عائلته بين سوريا ولبنان. الجارة لها أصول سورية، ككثير من اللبنانيين. تقاطعها فيونا:

"بتعرفي أنو زوج خالتك عميتحركش فيي؟ صار باعتلي كتير مسجات."

"عنجد عمتحكي؟"

"أيه. و حزري شو؟ قال بيحب لهجتي الشامية كتير."

تتابع فيونا، "مازن كمان قال معجب فيي. حاكاني مبارح بليل وقال لازم يشوفني اليوم لحالنا."

شيء من المرارة في أسلوب فيونا جعل سمر تشعر بتعاطف معها. ستغادر فيونا إلى لندن بعد يومين. تعلم سمر أن هذا القرار يجعلها متوترة.

"وشو قلتيلو؟"

"قلتلو يحل عني، ويلتفت لمرتو."

"بتعرفي، كمان مازن قلي أنو معجب فيي من كم شهر."

"مازن معجب بكل النسوان. كيفا مرتو؟"

"هدى رح تجن. مازن مصاحب بنت عمرها عشرين سنة. وفوق هيك البنت من قرايبين هدى. قال معجبة بالشاعر وما قدرت تقاومو."

"مو معقول قديش وقح هالزلمة. عالأقل زوج خالتك مانو بهالوقاحة."

"الله يعين خالتي. والله بتجن إزا دريت. هي مو متل هدى، مفكرة جوزها مستحيل يخونها."

"أنا قرفت من الرجال هون. لشوف إزا بتزبط اموري مع جون. بتعرفي، جون عميقلي أنو لازم نعيش مع بعض بلندن."

غادرت فيونا بريطانيا منذ ثماني سنوات لشعورها بنوع من عدم الرضا. ليس لهذا معنى واضح محدد، بل يشمل رغبات مختلفة منها حب السفر والمغامرة والتغيير، وعدم الانتماء إلى أوروبا. وجدت فيونا ضالتها في سوريا، حيث عاشت السنوات الخمس الأخيرة.

بصوت غير واثق تتابع فيونا، "ما بعرف إزا صح، بس يمكن لازم ضل ببيروت؟"

تستسلم فيونا اليوم لما كانت دائماً تعرفه، وتنكره: كانت وستبقى امرأة بيضاء تحمل جواز سفر أوروبي يميزها عن السوريين.

"ما في شي تحشي حالك غلطانة فيه. كتير ناس بدها تمشي بقا. أنا عمبستنى أنس يبعتلي الفيزا كمان."

تدخل المقهى خالة سمر مع طفلتيها، ترافقهم الجارة وأطفالها الثلاثة والخادمة الإثيوبية. تجلس الخالة مع سمر وفيونا لدقائق، قبل أن تلتحق بالجارات.

توزع الخالة فيونا بابتسامة عريضة وقحبة، "ديري بالك عحالك فيونا.

إزا حابة هاد جون تزوجي وخلصينا. ما بدك تجيبي ولاد بقا وتتستتي متلي؟ ما في أحلى من العيلة والولاد. هي سمر تزوجت. تزوجي قبل ما تصيري بالأربعين، اسمعي مني."

تضحك فيونا، "الله يبعتلي واحد متل زوجك بس. شو بدها الوحدة أكتر من هيك؟"

بعد مغادرة الخالة، تعاتب سمر فيونا على قسوتها. لا تستحق خالتها مثل هذه المعاملة. تعتذر فيونا، ولكنها لم تستطع مقاومة الرغبة بإيقاظ المرأة من سباتها العميق.

-٢-

كانت سمر تراقب عملية عصر البرتقال السريعة فيما مازن يثرثر حول مجموعته الشعرية الجديدة. تشعل سيجارة أخرى وترسل رسالة قصيرة لأنس من هاتفها الجوال.

"موع أساس بطلتي دخان يا عمو؟" تسألها علا.

"أيه بطلت. بس اليوم غير، انرفضت فيزتي."

حاول الجمع مواساة سمر. أخبروها أنها ستحصل على الفيزا طالما أن أنس، زوجها، يحمل الجنسية البريطانية. حصل مازن على الفيزا للمرة الثانية الأسبوع الماضي لقراءة شعره الثوري في لندن مرة أخرى. شرح لها سهولة الحصول على الفيزا، إن كانت الدعوة لنشاط ثقافي ضخم. ربما أخطأ أنس في بعض الملفات، فالإنكليز، بحسب مازن، لا يخالفون القانون.

يبدو أن العامل في المحل المقابل يستمتع بعصر البرتقال.

"عفكرة، شفت فيونا وجون الزيارة الماضية. حليانة هالفيونا يا سمر."

"طول عمرها حلوة. كيف لقيتا؟"

ترتب أغراضها في إشارة إلى أنها على وشك المغادرة.

"القصة مو بفيونا. القصة بجون."

يبتسم مازن بتلذذ قميء.

"شبو جون ليش؟"

"ولا شي. أنا ما بدي أحكي. بس هيدتو ابن الحرام مزبط أموره مع ليلى كمان."

"ليلى رفيقتنا؟ ليلى ما غيرها؟"

"أي. ليلى، ليلى رفيقتك وحبيبة قلبك".

كانت سمر صديقة مقربة لليلى، ولكنها لا تحب مغامراتها العاطفية الكثيرة. هذه المرة تشعر أن ليلى قد أساءت لها مباشرة. تفكر سمر بفيونا قليلة الحظ. كانت فيونا تريد أن تستقر منذ ما قبل الثورة، ولكنها دائماً تختار الرجال الخطأ. يبدو أن خيارها الإنكليزي ليس بأفضل من العربي.

تغادر سمر على عجل. فهي على موعد على الغداء عند خالتها.

تزعجها قصة جون أكثر بكثير مما توقعت، وتوقظ فيها مخاوف عميقة. كانت تعرف أنه حتى لو كان لأنس علاقة ما، ستتغاضى عنها. على أنس أن ينقذها مما هي فيه: من بيروت، والحرب، والوحدة. لم يكن هناك أي إشارات على الإطلاق أنه مرتبط بعلاقة ما، ولكنها أحست بخوف، ومرارة، لا تفسير لهما.

تتذكر فجأة ما قاله أنس أن البرتقال لا طعم له في بريطانيا.

"مساكين هالإنكليز". تهمس لنفسها.

لبيت خالتها تأثير سحري مهدئ على حالتها النفسية. تصل البيت متعبة شاردة. كانت الخالة تطمئنها أنها ستحصل على الفيزا حتماً في المرة القادمة.

تقدم لها القهوة بابتسامة آسرة صادقة، تسألها عن فيونا، "كيفها فيونا؟ عمتسمعي منها شي؟"

"الحمد لله، منيحة."

صينية فواكه كبيرة تزين طاولة غرفة الجلوس دائماً في بيت خالتها.

"ارتبطت بهاد يلي كانت حابيتو؟"

"أيه، عايشين مع بعض يعني"

"أنا بعمري ما حبيتا لهالبنت"

لا تريد سمر أن تسأل خالتها. تفهم أن خالتها قد عرفت شيئاً ما عن إعجاب زوجها بفيونا.

تقف سمر عند النافذة، تتأمل البحر.

"أحياناً بفكر لو فيي آخد هالولاد وسافر أنا كمان. ما في شي ماشي صح هون يا سمر."

ضرب من الانكسار في صوت خالتها يجعلها أكثر حزناً.

في الصحن قطعة برتقال وحيدة بين التفاح والموز.

"أمك الله يرحمها كمان كانت بدها تسافر."

تكلمها خالتها عن أمها كثيراً. لم تغادر الأم سوريا إلا في زيارات قصيرة إلى مصر ولبنان. توفيت قبل خمس عشرة سنة بالسرطان. كانت خالتها الوحيدة المتبقية من عائلة أمها الصغيرة؛ توفي الجدان قبل الأم.

"خالتو، مو يمكن كان أحسن لو ضليت بالشام وما طلعت عبيروت؟"

لا ترد الخالة، تتلهى بالطفلين. الخالة، ككل الأمهات اللواتي يرعين أطفالاً، لا تكمل حديثاً.

"وهالعالم يلي بالمخيمات خالتو ما بدون كمان يروحو عأوروبا؟"

تهز الخالة برأسها موافقة. تحاول أن تأخذ صحن فنجان القهوة من الطفل الأصغر.

تعلّق الخالة بشرود، "الله يوفقك وين ما رحتي."

يرن جرس الباب.

الخادمة الإثيوبية تطلب بعض البهارات من الخالة.

تدخل مبتسمة. تراقبها سمر وهي تبحث في المطبخ.

قبل أن تغادر تقول لسمر، "أنت ليش زعلانة. أنت ما بيصير تكون زعلانة."

ترتبك سمر.

إشراق أصيل يشع من الوجه الأسود الحسن.

"أنت لازم يكون عميضحك. الحمد لله كل شي بخير."

تردد سمر، "الحمد لله كل شي بخير."

تغادر الخادمة.

تصرخ الخالة من الغرفة الأخرى، "حطي الركوة عالنار يا سمر."

تتجه سمر إلى المطبخ.

تضع الركوة على النار.

تأتي الطفلة الأكبر ندى بالبرتقالة. تجلس على الكرسي وتقذم البرتقالة لسمر.

"قشريها سمور."

تأخذ سمر البرتقالة وتقشرها على مهل، ثم تقدمها لابنة خالتها الصغيرة.

"سمور. بس تخلصي القهوة بدي ألعب أنا وياكي. لا تروحي متل المرة الماضية بدون ما تلعبي معي."

"حاضر ندوش"

يسحرها البحر واقفةً تتأمله برهبة.

تأكل الطفلة البرتقالة بنهم.

حيرة سمر تسبح في بحر بيروت.

"سمور تركتلك قطعة."

تجلب الطفلة قطعة البرتقال لسمر.

تدخل الخالة المطبخ حاملة الطفل وهي تنهر ندى طالبةً منها أن تعيد التمثال الخشبي الصغير إلى غرفة الجلوس.

تغادر الخالة حاملة الطفل لتغير ثيابه.

تأكل سمر قطعة البرتقال الأخيرة.

تصرخ الخالة بندى، "جيبي فرشاية الشعر وتعي لهون. سمر رح تمشطلك شعرك"

تأتي ندى بفرشاية الشعر وتعطيها لسمر.

"بس ما توجعيني متل ماما. أنت حبابة سمور."

تمشط سمر شعر ندى على مهل.

تصب فنجاني قهوة وتجلس منتظرة خالتها.

شعور بالحميمية يطغى على الحيرة.

تنطفئ الأضواء دفعة واحدة في موعد تقنين الكهرباء اليومي.

تأتي ندى وتجلس في حضن سمر بصمت.

يخيم الظلام على المطبخ الذي يعبق برائحة البرتقال والقهوة.